محمد جواد مغنية

نظرات في التصوف والكرامات

ورات المكتبة الأهلية - بيروت

نظرات
في التصوف والكرامات



محمد جواد مغنية

نظرات في التصوف والكرامات

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

مقدمة

بسم الله ، وله الحمد ، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه محمد خاتم النبيين ، وآله المتقين ، وصحبه المخلصين .

وبعـد :

فقد كانت ، وما زالت مهمة الاديان والمصلين أن تهذب من غرائز الانسان ، وتضع حداً لنزواته وأنانيته ، وأن تحول بينه وبين ما يؤدي به وبالمجتمع الى الشـقاء والاسواء ، وكانت وسيلتهم الى ذلك أن يخلقوا في داخل الانسان وازعاً ورادعاً عن اسباب الفوضى والفسـاد والانحراف ، فأمرت الأديان بالتقوى والورع ، وتوعدت العاصين ، ووعدت المطيعين ، كما بيّن المفكرون النتائج السيئة اذا اطلق الانسان لنفسه العنان ، وكما وضعت الحكومات من القوانين والتشريعـات ما يوقف الانسان عند حده ، ويمنعه من الاعتداء على حقوق غيره .

وهذي احدى غايات التصوف وثمراته عند اصحابه واربابه ، فلقد حرصوا على أن يؤمن الانسان ويعتقد بان السعادة ليست

في الملذات ، والانغماس في الشهوات ، وان تحصل في نفسه ملكة تصرفه عن كل ما يشين ، وترتفع به الى اخلاق الملائكة والنبيين .

وقد حوت هذه الصفحات فصولاً في التصوف وأقسامه ، وصلته بنظرية المعرفة ، والافلاطونية الحديثة ، وفي كرامات الأولياء ، وما الى ذلك مما فهمته من كلمات المتصوفة .

واقتصرت – كما هي عادتي – على ذكر اللباب والاسس – التي اعتمدها المتصوفة ، والأهداف التي رموا اليها ، وتركت ما يريب القارىء من الخرافات والمعميات الى ما لا يريبه من الحقائق والواضحات .

سبب التأليف :

أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة مهرجانا دولياً للغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، واستمر هذا المهرجان في جامعة دمشق من ٢٧ الى ٣١ آذار سنة ١٩٦١ ، وقد انتدبتني الحكومة اللبنانية لأمثلها فيه ، فألقيت في اليوم الاول كلمة موجزة باسم لبنان وحكومته ، وفي اليوم الثالث القيت محاضرة في « نظرية المعرفة وحقيقة الكشف عند الغزالي » .

ثم رغب اليّ رئيس الجامعة اللبنانية الاستاذ فؤاد افرام البستاني ان اكتب محاضرة في التصوف ، لتلقى في ندوة الجامعة

بحضور اساتذتها وتلاميذها ، فكتبت الفصل الاول من هذا الكتيب ، ثم مضيت في الكتابة الى الفصل الاخير منه ، وارجو ان يحقق الغرض الذي قصدته ، وهو تقديم صورة واضحة عن اصول اهل التصوف وطريقتهم واهدافهم .

وكنت قبل ان اتصدى للكتابة في التصوف اسخر منه ، وممن يراه شيئاً مذكوراً ، وبعد أن درسته ، وتفهمته على حقيقته آمنت بأن من يسيطر على نفسه ، ويسير بها في سبيل النبل والرفعة لا بد أن يبلغ المعرفة بالله ، وبالخير . او قل : ان من اتقى الله حق تقاته يؤيده بروح منه ، ويهديه سبيل الرشاد .

ان أصل التصوف الحق هو التخلق باخلاق الله ، وثمرته معرفة الله ، والاتصاف بالحكمة التي وصف الله بها الانبياء والاولياء ، وصرحت بها الآية ١٢ من سورة لقمان : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » والآية ٢٦٩ من سورة البقرة : « ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً » .

وبالتالي ، فان الايمان بالحق والخير ضرورة لا غنى عنها للانسان ، ولهذا الايمان سبل شتى ، واكملها التجرد والعمل لوجه الحق والخير ، والله ولي التوفيق .

التصوف والرهبنة



ما هو التصوف ؟ وما هي الغـاية المقصودة منه ؟ وهل هو من الموضوعات الاسلامية الخالصة ، أو ان تاريخه يمتـد الى ما قبل الاسلام ؟ وبالتالي ، هل الرهبانيـة هي التصوف بالذات ، او شيء آخر لا يمت الى التصوف بصلة .

ما هو التصوف ؟

قد يظن أن التصوف طريقـة تدعو الى ترويض النفس على الفقر والمسكنة ، ولبس المرقعات ، وحمـــل المسابح ، وترك الكسب والعمل لتحصيل العلم والعيش ، والاقبال على ذكر الله في الخلوات والحلقات .

ولا مصدر لمن فسر التصوف بذلك الا انـه رأى فئة من الكسالى تحترف العيش عن هذه السبيل ، ثم تتستر بذكر الله ، واسم التصوف ، فتخيل ان هـذا هو المعنى الحقيقي للتصوف . وبديهة أن الحق لا يعرف بالرجال ، بل العكس هو الصحيـح . ولو اخذنا معنى التصوف من بعض المنتسبين اليـه ، والمتسمين

بسمته ، لكنا كمن يأخذ المسيحيــة عن مقلنس ، والاسلام عن معمم ، ويدع القرآن والانجيل ، وما فيهما من تعاليم واحكام وفرائض .

ولا شيء أدل على ان التصوف غــير الزهد من أن معنى الزهد يتحقق بمجرد الاعراض عن الدنيا ومتاعها ، أما التصوف فقد أخذ في مفهومه مجاهدة النفس وترويضها ، أجل ، ان الزهد ثمرة من ثمرات التصوف ، وليس هو التصوف بالذات . على أن ابن عربي ، وهو أحد شيوخ الصوفية قد فسر هـــذا الحديث القدسي حكاية عن الله سبحـانه : « أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلهـا وصلته ، ومن قطعها قطعته » فسره بأن العمل في هــذه الحياة ضرورة لازمة لكل انسان صوفياً كان أو غير صوفي ، ويتلخص شرحه لهذا الحديث بأن الله أراد من الرحم الطبيعة ، فكما أن الرحم تضم الطفل ، وتغذيه، وتحفظ له الحياة كذلك الطبيعة تضم الانسان ، وتطعمه، وفيها ينمو ويكبر . اما صلة الانسان للطبيعة فهو أن يجد فيها ويعمل ، ومعنى قطعه لها أن يكسل ويهمل ، وقال الشيخ العربي : من بخس حق الطبيعة فقــد بخس حق الله ، وجهل ما فيها من اسرار .

هذا ، الى أن ما يحصل للانســـــان من الثواب والنعيم في الآخرة ، وبعد الموت فهو من نتائج العمل في هذه الحيــاة ، فليس الكمال الاخروي الا من ثمرات العمل في الطبيعة نفسها ، وهذا معنى قوله تعــالى : « وانــ ليس للانسان الا ما سعى »

ومعنى قول الامام علي : « اليوم عمـــل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » . وحمل المسابح ولبس المرقعات وعقد الحلقات ليس في شيء من العمل عند الله وعند الناس .

اذن التصوف شيء ، والزهـــد شيء آخر ، وأيضاً ليس التصوف من الشعائر والعقائد الدينية ، ولا من التقاليد السائدة والنظم الاجتماعية ، ولا هو حقيقة طبيعية تفرض نفسها فرضاً ، وانما هو بأساليب التربية اشبه ، نقول هـــذا ، مع العلم بأن التصوف بمعناه الشامل لكل فئة تتسم به ، وتنتمي اليه لا يجمعه حد ولا رسم ، لان المتصوفة على انواع ، فمنهم من هام بحب الله ، ومنهم من يدعي الاتصال المبـــاشر بالله ، ومنهم القائل بالاتحاد مع الله ، وآخر قال بحلول الله فيه وفي غيره ، ومنهم من يقول بالكشف والاشراق ، وما الى ذلك . فالتصوف اذن بمعناه الشامل لجميع النزعات والاتجاهات ليس مذهبـــاً محدود المعالم والمقـــاصد ، وبالتالي فلا يمكن الاشارة اليه بحد جامع مانع .

وقد ذُكر له تعاريف شتى انهاها بعضهم الى نيف وسبعين تعريفاً ، ومهما يكن فنحن نشير اليه بانه الانتصار على النفس ، والتغلب على ميولها وأهوائهـــا عن طريق التدريب والتهذيب ، تماماً كترويض الحيوان المفترس على الوداعة ، فيصبح وادعاً مسالماً بعد ان كان شريراً مخاصماً .

الغاية من التصوف

أما الغاية المقصودة من التصوف فتختلف تبعاً لانظار المتصوفين ، فمن اعتبره سبباً من أسباب المعرفة فتكون الغاية عنده ثقافية ، ومن رآه طريقاً الى الكمال فتكون الغايةاخلاقية ، ومن اتخذه وسيلة للخلاص من عذاب الآخر فتكون دينية ، وبعضهم يرى التصوف سبباً لهذه مجتمعة .

تاريخ التصوف :

ان التصوف بمعناه الشامل لجميع انواعه وصوره ، وكما تبحثه كتب الفلسفة ليس من المسائل والموضوعات الاسلامية الخالصة التي يرجع فيها الى القرآن والحديث النبوي ، بل ان التصوف بمعنى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ينكره الاسلام ، وينفيه نفياً قاطعاً . تاريخ التصوف يمتد الى ما قبل الاسلام ، وقد تسرب الى الفكر الاسلامي ، واندمج به كغيره من الافكار الاجنبية . فوحدة الوجود والحلول قد جاءا من الفلسفة الهندية والافلاطونية الحديثة ، كما أن البوذية ترتكز تعاليمها على تهذيب النفس وتحريم الملذات .

وقال الباحثون في التصوف : ان الصوفية لمسلمين كانوا في اول امرهم يتلون القرآن ، ويكثرون من العبادة وذكر الله ، ثم تكلم ابو يزيد البسطامي في الفناء بالله ، وهذه الفكرة توجد في البوذية ، وتسمى عندهم « نرفانا » . وقال الباحثون أيضاً : ان النصرانية احد منابع التصوف ، وعنها اخذ لبس الصوف ،

اذ كان كثير من الرهبان يلبسونه ، والى النصرانية يسند الكلام في حب الله .

الرهبانية والتصوف :

قال بعض المستشرقين : ان الرهبانية المسيحية احد منابع التصوف الاسلامي وتبعه على ذلك جماعة من المصريين ، منهم الدكتور زكي مبارك ، قال في الجزء الثاني من كتاب التصوف الاسلامي : « ان المسلمين كانوا يرون المسيح قدوة في الشئون الروحية ، فانهم عرفوا الانجيل منذ زمن بعيد ، وقد ترجموه ترجمة فصيحة جداً ، ومن تلك الترجمة الفصيحة شواهد كثيرة في كتب الادب والتصوف ، كالذي نراه في كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة ، وكتاب الاحياء للغزالي . والتشابه كبير جداً بين مذاهب النصارى ومذاهب الصوفية في التعبد ، فالنصراني المتبتل يدخل الكنيسة وفي جيبه كتاب يشتمل على طوائف من الادعية والصلوات ، والصوفي المخلص يدخل المسجد ، وفي يده كتاب يشتمل على طوائف الاستغاثات والاحزاب والاوراد » .

ونحن لا ننكر الرهبانية المسيحية ، كيف ، وقد نص عليها القرآن الكريم في الآية ٢٨ من سورة الحديد : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء مرضاة الله ، فما رعوها حق رعايتها » ، كما اثنت الآية ٨٦ على الرهبان والقسيسين : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان وانهم لا يستكبرون » .

ولكن نتساءل : هل الرهبانية هي التصوف ؟ وهل القسيسين

والرهبان من المتصوفة حقاً او انهم رجال دين يعيشون معيشة خاصة ، ويتزيون بزي خاص ، يعبـــدون الله ويقومون بمهمة الدفاع عن العقيدة ، وتعليمها للناس بالوعظ والارشاد ؟

اما نحن فنميل الى الرهبانية غير التصوف ، وان رجال الدين شيء ، والمتصوفة شيء آخر ، بخاصة التصوف النظري هو احد اسباب المعرفة ، ومهما يكن ، فلا يمكن الباحث المنصف ان يرجع التصوف بمعناه المتشعب الى أصل واحد محدود .

أجل ، يمكن ان نُرجع الى المسيحية الحب الالهي عنـــد المتصوفة المسلمين ، على أن القرآن الكريم قد صرح به في اكثر من آية ، ولكنه اراد الحب بمعنى الطاعة والانقياد لله والجهاد في سبيله ، لا بمعنى الوجد والشوق .

التصوف والاسلام :

والآن ، ما هو موقف الاسلام من التصوف ؟ هل ينكره او يقره ؟ وقد اشرنا فيما سبق الى اقسام التصوف وانواعه ، فما كان من نوع مجاهدة النفس ومراقبتها ، والاقبال على الله وعمل الحق فهو من صميم الاسلام ، بل سماه النبي بالجهاد الاكبر ، وسمى الجهاد بالسيف الجهاد الاصغر .

وما كان بمعنى الاتصال بالله مباشرة وبلا واسطة ، او الاتحاد والحلول فهو كفر والحاد .

وما كان من نوع الشعوذة والمراء ، وادعاء السحر ، وعلم الغيب والكرامات فهو فسق ونفاق ، وقد جاء من طرق الشيعة

احاديث كثيره في ذم التصوف والمتصوفين بهذا المعنى ، والمعنى الذي قبله ، وان الصوفية « قطاع طريق المؤمنين ، والدعاة الى نحلة الملحدين ، وانهم حلفاء الشيطان ، ومخربوا قواعد الدين ، يتزهدون لراحة الاجسام ، ويتهجدون لصيد الانام ، ولا يتبعهم الا السفهاء ، ولا يعتقد بهم الا الحمقاء » .

اما أن يكون التصوف سبباً من أسباب المعرفة ، وطريقاً لبعض المجهولات ، اما ان يُلهم القلب الزكي بنوع من الحقائق فله مصدر واضح في الاسلام ، ويسمى هذا التصوف بالتصوف النظري ، وبعلم القلب ، ولعلاقته بالمعرفة دخل في الفلسفة ، وكان بابا من ابوابها ، وموضوعاً من موضوعاتها ، ويشهد لهذا الارتباط قول الرسول الاعظم : « من علم وعمل اورثه الله علم ما لم يعلم » حيث جعل العمل سبباً للعلم ، تماماً كالعلم الذي هو سبب معد للعمل ، ويتفق هذا الحديث مع النظرية القائلة ان المعرفة تخضع للنشاط العلمي ، كما يخضع العمل للمعرفة – مثلًا – اذا تعلمت مهنة ، وباشرت العمل بنفسك ، ومضيت مستمراً في ممارستها تفتحت آفاق جديدة تدعوك الى عمل جديد ، واذا تابعت حصلت لك معرفة اخرى ، وهكذا الى ما لا نهاية ، فالعلم والعمل اشبه برجل يسير في ظلمة حالكة ، وفي يده مصباح فالمصباح يضيء له الجزء الاول من الطريق ، فيقطعه الرجل بسلام ، فاذا انتهى منه يصير المشي سبباً لاضاءة الجزء الثاني ، فيقطعه الرجل ، كما قطع الجزء الاول ، وهكذا يحصل التفاعل بين متابعة السير والاضاءة ، حتى النهاية ، فكل منهما سبب

ومسبب ، وفاعل ومنفعل ، فالضوء فاعل لانه يهيء للسير على الطريق ، ومنفعل لان المشي يهيء لاضاءة الجزء التالي منه .

وقال الامام علي مشيراً الى ربط المعرفة بالتصوف : ان الله جعل الذكر جلاءً للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد العُشوة ، وتنقاد به بعض المعاندة » . وقال : ان من احب عباد الله اليه عبداً اعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه » فقد جعل اتصالا بين طاعة الله ، وبين المعرفة ، كما ربط بين المعصية ، وبين الجهل في قوله : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود اليه ابداً » ، الى غير ذلك من تعاليمه التي تربط بين كل صفة وما يناسبها من الصفات ، فالفضائل عند الامام متآخية متشابكة يدعو بعضها الى بعض ، وتطرد كل خلق ما يضاده من الاخلاق الرذيلة ، تماماً كالجسم القوي السليم يقاوم الاسقام ، ويزداد قوة ونشاطاً ، وجاء في القرآن الكريم آية ١٧ من سورة محمد : « والذين اهتدوا زادهم هدى » .

أما الرذائل فهي كأمراض الجسم ، يؤدي بعضها الى بعض ، قال تعالى في الآية ١٢٦ من سورة التوبة : « واما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجساً الى رجسهم » ولما كانت تعاليم الامام متخمة بالحث على الزهد والتقوى ، وتربط بين المعرفة ومجاهدة النفس ، وكانت الدنيا عنده احقر من عفطة عنزل — كما قال — اجتذبته الى نفسها كل فرقة من فرق التصوف ، وانتسبت اليه مدعية انها تستقي من معينه ، وتستمد من تعاليمه .

قال المستشرق جولد تسهير في كتاب «العقيدة والشريعة»: « ان تقديس علي اصبح عقيدة تحمس لهـــا عدد من البيئات الصوفية ، حتى تغلغلت احياناً في ثنايا مذهبهم وتعاليمهم ».

اما المعرفة التي يؤدي اليهـــا التصوف فهي معرفة السبب الاول لهذا الكون وأوصافه وأفعاله ، ومعرفة اسرار العالم ، والحكمة المودعة في نظامه وجميـع أشيائه ، بخاصة معرفة حقيقة الانسان والغاية من وجوده ، والوجهة التي يجب عليه أن يتجه اليها في حركاته وسكناته [1] .

التوفيق بين الدين والتصوف :

وقد وجد بين المتصوفين فئة حاولت التوفيق بين التصوف والظواهر الدينية ، كابن عربي ، وعبد الرزاق القاساني ، وابن فهد ، وغيرهم . ومن الامثلة على هــذا التوفيق قول ابن عربي بان دين الاسلام وغيره من الاديان امر بالحب والاخاء ، والحب يستدعي رفع الحواجز بين الناس ، كل الناس ، دون فرق بين المسلم والمسيحي ، والوثني وغيره ، واعلن ابن عربي هذا الرأي بقوله :

---

(١) هذا قول الصوفية ، اما نحن فنؤمن بأن التجرد عن الاهــواء والاغراض ، والاخلاص لله قوة وعملا يجر الانسان تلقائياً الى الايمـان بالله ، والى الحكمة التي وصف الله بها الانبياء الصالحين ، وهي معرفة الخير والعمل به ، ومعرفة الشر ، والابتعاد عنه . واليه اشارت الآية : ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً .

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب انّى توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني

وشطح بعض الصوفية القائلين بالاتحاد ، ولم يقف عند حد ، وألف بين الكفر والايمان ، واعتبرهما سواء عند الله ، واعطانا هذه الصورة الشعرية ، قال : الكفر والايمان كصفار البيضة وبياضها ، يقوم بينهما حاجزٌ لا يتجاوزانه ، وحين طوى ذو الجلال البيضة تحت جناحيه اختفى الكفر والايمان ، واتحدا في طائر واحد ذي جناحين [1] .

واذا صرفنا النظر عن النصوص الدينية ، وافترضنا انها لا تؤيد ولا تفند التصوف ، ونظرنا الى اهتمام الامم به منذ اقدم العصور ، كالبراهمة والصابئة والبوذية والمانوية والمسيحية ، لو فعلنا هذا لالفينا التصوف شرعة عالمية ، وفلسفة انسانية ، وهذا يدعونا الى الظن ان لمجاهدة النفس وتزكية القلب اثراً معقولاً ، ونوعاً من الارتباط بينه وبين المعرفة وكشف الحجب ، فمن الحمق والجهل ان ننفي هذا الاثر والارتباط « ضربة واحدة » وندعي بطلانه جملة وتفصيلا ، بخاصة أن العلم لا يقر الاحكام النهائية المطلقة سلبية كانت او ايجابية .

---

(١) ان المساواة بين الكفر والالحاد تبتني على وحدة الوجود ، فكل من قال بوحدة الوجود لا يرى فرقاً بين الاديان ، ولا بينها وبين الالحاد .

لا تسنن ولا تشيع في التصوف :

ليس التصوف علماً كالفقه ، كي ينقسم المختلفون فيـــه الى مذاهب ، كما هو الشأن في اختلاف الاحناف والشافعية والمالكية والحنابلة ، ولا هو اصل من اصول العقيدة ، حتى تتعدد الفرق على اساس الاختلاف فيه . ان الفارق الوحيد بين السنة والشيعة هو نص النبي بالخلافة على الامام علي ، فمن اثبتــه فهو شيعي ، ومن نفاه فهو سني ، ولا علاقة للتصوف بشتى معـانيه بذلك ، فالشيعة منهم المتصوف وغير المتصوف ، وكذلـــك السنة ، والمتصوفون منهم السني ، ومنهم الشيعي ، ولكن متصوفي السنة اكثر من متصوفي الشيعة . فقد نقل المستشرق نيكلسون عن عبـد الله الانصاري انه قال : كان من الفي شيخ صوفي عرفتهم شيعيان اثنان لا غير .

وبهذا يتبين مكان الخطأ فيما نقل عن ابي المظفر الاسفراييني من أن التصوف مذهب من مذاهب اهل السنة ، كما يتبـين الخطأ في قول من عد المتصوفة فرقة مستقلة عن سـائر الفرق الاسلامية ، فقد كان الغزالي صوفياً اشعرياً ، وابن سينا صوفياً امامياً ، وغيرهما صوفياً معتزلياً ، وكان ابن عربي يدين بالحب الذي يشمل جميـع الاديان ، وقد اسلفنا ان التصوف وجد في جميـع الاديان منذ اقدم العصور ، اجل ، ان طريق الصوفيـة واسلوبهم في الاستدلال ، واكتساب المعارف يختلف عن طريق الفلاسفة والمتكلمين ، أما عقائدهم فقد تتفق معهم ، وقد تختلف .

واذا كانت حياة التصوف حياة المجاهدة والتقوى والتأمل فان الشيعة اغنى الناس جميعاً في هـذا التراث ، فقد رووا عن أئمتهم من المواعظ والحكم والادعية والمنـــاجاة ما لا يبلغه الاحصاء ، وننقل منها قطعة للامام زين العابدين تصور موقفه مع خالقه سبحانه ، ودفاعه عن نفسه اذا اراد الله عقابه وعذابه، ولسنا نجد في كلمات الصوفية على كثرتها وتنوعها ما يشبه كلام هذا الامام العظيم ، فان كلمات الصوفية كلها او جلها من نوع الحب والوجد وبث الاشواق ، او الغزليـات والخمريات ، او الاعراض عن الحياة والملذات ، او الترنيم والتنغيم ، او الالغاز والطلاسم ، الى غير ذلك .

أما كلمات الامام زين العابدين فانها تفيض بمعانٍ لم يهتد اليها الصوفيون ، ولم تخطر لهم على بال ، ولم يبلغه احــــد من قبل ومن بعد ، قال مخاطباً ربه اذا اراد حسابه وعقابه :

« الهي ، وعزتك وجلالك لأن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك ، ولأن طالبتني بلؤمي لأطالبنك بكرمك ، ولأن أدخلتني النار لأخبرن اهلهـــا بحبي لك . .
الهي ، ان كنت لا تغفر الا لأوليائك وأهل طاعتك ، فالى من يفزع المذنبون ، وان كنت لا تكرم الا أهل الوفاء بك ، فبمن يستغيث المسيئون . .
الهي ، انك انزلت في كتابك العفو وامرتنا أن نعفوا عمن ظلمنا ، وقـد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا ، فانك اولى

بذلك منا ، وامرتنا ان لا نرد سائلًا عن ابوابنا ، وقد جئتك سائلًا فلا تردني عن بابك ، وأمرتنا بالاحسان الى ملكت ايماننا ونحن ارقاؤك ، فاعتق رقابنا من النار ... »

ثم قال مدافعاً باسلوب آخر :

« الهي ، اني امرؤ حقير ، وخطري يسير ، وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة ، ولو أن عذابي مما يزيد في ملكك لاحببت أن يكون ذلك لك . ولكن سلطانك اعظم ، وملكك ادوم من ان تزيده طاعة المطيعين ، او تنقصه معصية المذنبين ... »

أرأيت دفاعاً اقوى من هذا الدفاع ؟ او حجة أبلغ من هذه الحجة ؟! .. ماذا يصنع الله بعقاب الناس ما دام العفو لا ينقص من ملكه ، والعذاب لا يزيد من سلطانه ؟! .. وقد احتج الامام بنفس الشريعة التي كتبها الله على نفسه وعلى الناس اجمعين، حيث قال عز من قائل : « كتب ربكم على نفسه الرحمة . . . يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . ان الله يغفر الذنوب جميعاً . انه غفور رحيم » ونحن معاشر المذنبين لا نطلب من الله الا الرحمة والغفران . . لقد وضع الامام زين العابدين النقاط على الحروف ، وقدم الارقام للحاكم العظيم مع التقديس والتعظيم ، واذا كان قول الله حقاً وصدقاً فان احتجاج الامام جاء وفقاً لهذا الحق . وما ابعد

ما بين هذا الاسلوب الذي يفتح للناس باب الرجاء ، وبين طريقة مالك بن دينار الصوفي الذي يسد باب الرحمة والرجاء ! . .

قال له قوم وقد انقطع عنهم الغيث : ادع لنا ربك يسقينا. فقال : انكم تستبطئون المطر ، واستبطىء الحجارة ! . .

نحن والتصوف :

ونتساءل : هل في هذا التراث الضخم الذي بين ايدينا من التصوف ما يسهل لنا الطريق الى ما نبتغيه من الخير والصلاح ؟ هل باستطاعتنا ان نستنتج من التصوف ما يحمينا من الانحرافات والعثرات ؟

الجواب :

ان التصوف يعتني عناية خاصة بالسلوك العلمي ، ويهتم بتهذيب النفس ، وصلة الانسان بخالقه ، ويتجه به وجهة روحية ، ويدفعه الى عمل الخير لوجه الخير ، لا رغبة في مال او جاه ، والى ترك الشر للشر ، لا خوفاً من السوط والسيف ، ومعنى هذا ان مبدأ التصوف يقر بوجود الفضيلة كحقيقة واقعة لها وجود مستقل عن المشاعر والاستحسانات والرغبات ، ومعناه أيضاً أن التصوف من مقومات الثقافة والحضارة التي عاشها الاجداد والآباء ، فعلينا ، والحال هذه ، أن ندرسه على اسس جديده بجد وعناية ، ونقيمه فوق النظريات والافكار التي ترشدنا الى الطريق القويم ، وتسير بنا الى الامام .

واذا كان البعض لا يؤمن كالصوفية بالحدس والكشف فنحن

نؤمن باننا في أشد الحاجـــة الى الحب والاخاء ، والى الشعور بالمسئولية ، وتطبيق القيم الروحيـــة ، ونبغي التوصل الى ذلك بكل وسيلة ، بالقصة والمسرحية والموسيقى والسينما ، والوعظ والارشاد ، وما الى ذلك من المؤثرات الدينية ، والوسائل الفنية التي نتخذ منها رادعاً عن الموبقات والانحرافات ، وان التصوف اجدى وانفع من هذه الاجهزة ، واي شيء أبلغ في الايمان والتقوى من قول الامام علي : « اعبد الله كـأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » ؟!

وأي قول اوقـــع في النفس من قول ابن عربي : « ادين بدين الحب » ، وقول جلال الدين الرومي : « ليس حب الناس الا نتيجة لحب الله » ؟! وأي شيء أقوى في الشعور بالمسئولية من قول اويس القرني الذي كان يتصدق بمـــا يزيد عن مأكله وملبسه ، ثم يخـاطب الله بقوله : « اللهم من مات جوعاً ، فلا تؤاخذني به ، ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به »[1] .

اما الذين لا يشعرون بالمسئولية ، ولا يقولون ويفعلون الا بدافع الربح والتجـــارة ، أما هؤلاء فدواؤهم أن يجاهدوا انفسهم ، ويراقبوها ، حتى تصبح مأمورة غير آمرة ، وتابعـة غير متبوعة ، وان يوقنوا عمليـاً لا نظريا بانهم مسئولون امام الله ، ومحاسبون على كل كبيرة وصغيرة ، ومجزيون باعمـالهم ،

---

(١) شهد له رسول الله بالجنة دون ان يراه ، وقال يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومصر ، وقال له عمر : امر النبي ان نبلغك سلامه . حضر اويس مع الامام في صفين ، واستشهد بين يديه ، وهو من كبار التابعين .

ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ، والتصوف كفيل بذلك كله كفيل بان يزيل من النفوس والأذهان الفكرة الشخصية ، ويحل مكانها فكرة القانون والعدالة ، لقد اعتدنا ان نقول : فلان عظيم ، لأنه وزير او نائب او مدير ، ولأنه يوظف ويعزل ، ويرفع ويضع ، ولا بد المصلحين ان يبذلوا كافة الجهود لازالة هذه الفكرة ، واستبدالها بفكرة العدالة والكفاءة ، وانهم لواجدون في التصوف خير الوسائل وأجداها الى هذه الغاية .

وبالتالي ، فاذا كانت التربية نظريات وافكار ، فان التصوف بمعناه الصحيح تطبيق وعمل .

الافلاطونية الحديثة



الحب الالهي :

قال احمد امين في الجزء الرابـع من ظهر الاسلام ص ١٥٠ : « للتصوف ركنان : الزهادة ، وحب الله » .

وقد اسلفنا أن الزهد [١] غير التصوف ، حيث يعتــبر في التصوف مجاهدة النفس ، وترويضهـا دون الزهد ، فانه يتحقق بمجرد الاعراض عن الدنيا وملذاتها ، اما الحب الالهي فقد وجد من بين الصوفية المسلمين من ادعاه ، ودعا اليه ، وعرفه بعضهم بانه الميل الدائم بالقلب الهائم . وقال آخر : انه ايثار المحبوب على جميـع المصحوب . وثالث : انه محو المحب بصفاته ، واثبات المحبوب بذاته . ورابـع : انه هتك الاستار ، وكشف الاسرار .

---

(١) فرق ابن سينا في كتاب «الاشارات» بين الزاهد والعابد والعارف، فالزاهد يترك الدنيا طلبا للآخرة ، والعابد يعمل في الدنيا من اجل الاخرة، فغاية كل منهما واحدة الا ان الزاهد سلبي ، والعابد ايجابي، اما العارف فانه يجاهد نفسه ويروضها طلبا للكمال .

وخامس : انه لذة في المخلوق واستهلاك في الخالق . وسادس : انه اغصان تنبت في القلب ، وما اشبه ذلك .

واعترف باني لم افهم شيئاً من حب الله بهذا المعنى ، اما حبه بمعنى طاعته والانقياد له فمعقول ومقبول ، وقد نص عليه القرآن الكريم في الآية ٥٣ من سورة المائدة :

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» ولكن الحب بهذا المعنى يرجع الى مجاهدة النفس ، وتحليها بالكمال والفضيلة ، وعليه فلا يكون قسما من التصوف ، ولا ركناً له .

وقرأت كثيراً مما كتب في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، واطلعت اخيراً على كتاب «الحب الالهي في التصوف الاسلامي» رقم ٢٤ ، نشرته المكتبة الثقافية في القاهرة التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي ، وقد بلغت صفحاته ١٣٧ ، ورجعت اليه اكثر من مرة املاً ان اخرج منه بمحصل يمدني فيما اكتب لهذا الفصل ، ولكن لم احصل على جدوى ، ولا شيء اصعب عليّ من أن اكتب في موضوع لا اعقله ولا ادركه ، لذا صرفت الكلام عن الحب الى الافلاطونية الحديثة ، لانها احد منابع التصوف :

ونمهد للافلاطونية الحديثة بالاشارة الى نظرية المثل عند افلاطون استاذ المعلم الاول ، فقد نسب اليه القول بان الموجودات صورا مجردة في عالم الاله ، وتسمى هذه الصور

بالمثل الالهية ، ومن خصائصها انها لا تفسد ولا تندثر ، فهي ابدية ازلية ، والذي يفسد ويندثر هذه الكائنات المشاهدة ، وقد فسرت هذا المثل بتفاسير شتى متناقضة متضاربة ، نختار منها تفسير الفيلسوف الشهير محمد بن ابراهيم المعروف بالملا صدرا، هذا مع الاعتراف بان اختيارنا لتفسيره لا يستند الى دراسة وافية ، ثم المقارنة بين ما قيل حولها ، واختيار الاصح والارجح ، وانما اخترنا قول هذا الفيلسوف لشهرته ، والثقة بمكانته، وتبحره في هذا الفن ، فنحن في مسألة المثل الافلاطونية مقلدون لا مجتهدون ، وتتلخص اقوال الملا صدرا ، كما جاءت في الجزء الثاني من السفر الاول من كتاب الاسفار :

بأن لكل نوع من انواع الكائنات افراداً عديدة ، منها هذه الافراد المشاهدة التي يعرض لها الفساد والعدم ، ومنها فرد واحد تام كامل يوجد في عالم الجبروت والابداع ، أي عالم ما وراء المادة ، وهذا الفرد الكامل لا يفتقر الى شيء ، ولا يتغير ولا يتبدل ، وهو الاصل والمبدأ لسائر افراد النوع التي تفسد وتزول .

وان قال قائل : كيف يكون للنوع فردان : احدهما كامل قائم بنفسه ، والآخر ناقص قائم بغيره ؟ ! وهل يمكن وجود قاسم مشترك يجمع بين شيئين متناقضين ؟

قال صاحب الاسفار في جوابه : لا مانع ابداً أن يصدق العام على افراد تتفاوت نقصاً وكمالا ما دام الكمال في الحقيقة والجوهر ، والنقص في العرض والنسبة الى المحل .

الافلاطونية الحديثة :

في القرن الثاني والثالث الميلادي وجـد فلاسفة شرقيون ، اسكندريون وسوريون كان همهم واهتمامهم ان يكونوا ديناً مفلسفاً بآراء افلاطون ، فالدين من عندهم ، وفلسفته من افلاطون الذي لا يعرف عن هذا الدين كثيراً ولا قليلا ، وأشهر هؤلاء افلوطين المصري (ت ٢٦٩ م) وتتلخص فلسفته بأن وراء المادة موجوداً اولاً واحداً من جميع جهاته ، وعن هـــذا الموجود الواحد صدر قهراً العقل الكلي ، وهـذا العقل يحوي في ذاته مثل جميع الموجودات ، ثم صدر عن العقل الكلي النفس الكلية ، وعنها صدرت جميع الموجودات ، ثم صدر عن العقـل الكلي النفس الكلية ، وعنها صدرت جميع الموجودات بواسطة النفوس الجزئية وفقاً للمثل الموجودة في العقل الكلي ، وهذه الاربعة ، اي الاول الواحد ، والعقل الكلي ، والنفس الكلية ، والموجودات متشابكة مترابطة متراصة تشترك في جميع الخصائص ، ومن هنا كان افلوطين مسوقاً الى وحدة الوجود ، اراد ذلك ، او لم يرد ، ويؤيد ذلك ما نسب اليه من أن الموجودات المادية تتحول في النهاية الى الوجود الاول ، وتفنى فيه ، تماماً كالبخار الذي تحول من الماء ، ثم يتحول اليه .

والمعرفة عند افلوطين تنحصر بالذوق والكشف ، أي بالمعرفة القلبية ، ولا قيمة لغيرها مهما كان نوعها ، ومن اقواله « يجب عليّ ان ادخل في نفسي ، ومن هنـــا استيقظ ، وبهذه اليقظة

التحـــد بالله » ، وقال : « يجب ان احجب عن نفسي النور الخارجي ، لكي أحيا وحدي في النور الداخلي » وقال أيضاً : « اني ربمـا خلوت الى نفسي ، وجعلت بدني جانباً ، وصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلاً في ذاتي راجعاً اليها خارجاً من سائر الاشياء ، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعاً » .

ولما كان صدور العـــالم عن الاول بالطبع لا بالارادة فلا يسمى هذا الصدور فعلاً ، بل اشعـاعاً ، وانبثاقاً وفيضاً مهما شئت فعبر ، تماماً كما يشع ضوء الشمس من الشمس ، وكما يبعث اللهيب الضوء والنور [1] .

وقال فورفوريوس (ت ٣٠٤ م) ، وهو تلميذ افلوطين : « ان الغـــاية من الفلسفة هي الخلاص من الشرور بمجاهدة النفس ، والقضاء على شهواتهـــا ، وبهذه المجاهدة نتوصل الى معرفة الله » .

واذا تأملنا ما تحويه الافلاطونية الحديثة من وحدة الوجود، وفناء الموجودات ورجوعهـــا الى الموجود الاول ، ومجاهدة النفس ، ثم الكشف والمعرفة القلبية ظهر لنا جلياً أن هـــذه الافلاطونية من اهم المنابـع للتصوف الاسلامي .

---

(١) قال يوسف كرم في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٩٧ الطبعة الرابعة: «ترجمت بعض رسائل افلوطين الى اللاتينية في القرن الرابع ، فوجد فيها القديس اوغسطين عوناً كبيراً ، ووضع الافلاطونية المسيحية » اي ان الافلاطونية الحديثة مصدر للافلاطونية المسيحية

التأويل



التأويل هو تفسير اللفظ بمعنى لا يدل عليه الظاهر ، بحيث يدل اللفظ على شيء ، ويفسر بشيء آخر ، كتفسير الاسلام بالدار ، لأنه جامع لاهله ، والجنة بالمأدبة ، لأن فيها ما تشتهي الانفس ، فقد جاء في الحديث الشريف « ان الله سبحانه جعل الاسلام داراً ، والجنة مأدبة ، والداعي اليها محمد » .

وبعد ان اتفق المسلمون كلمة واحدة على وجوب العمل بالكتاب والسنة اختلفوا : في انه هل يجب الوقوف عند ظواهر النصوص الواردة فيهما ، او يجوز تأويل اللفظ بما يخالف الظاهر؟ فمنهم من قال بوجوب الوقوف عند ظاهر اللفظ مطلقاً ، حتى ولو خالف حكم العقل ، ومنهم من قال بجواز التأويل ، بل بوجوبه في بعض الحالات ، وذلك اذا تصادم الظاهر مع العقل ، ومنهم من قال بجواز التأويل مطلقاً ، ولو كان الظاهر موافقاً لحكم العقل ، وهؤلاء جماعة من الصوفية ، ومن اجلهم عقدنا هذا البحث .

الوقوف عند الظاهر :

ان الذين اوجبوا الوقوف عند ظواهر النصوص ذهبوا الى أن الحسن والقبح ، ومعرفة الله ، كل ذلك يجب بالشرع لا بالعقل ، وقالوا ايضاً : ان الانسان مسير لا مخير اهمالاً لحكم العقل ، واخذاً بظاهر الآية ٩٦ من الصافات : « الله خلقكم وما تعملون » والآية ١٦ من الرعد : « الله خالق كل شيء » واتفقوا أيضاً على أن الله يُرى بالمشاهدة ، وان له سمعاً وبصراً لظاهر الآية ١١ من الشورى : « وهو السميع البصير » .

ثم اختلف هؤلاء الظاهريون فيما بينهم ، فمنهم ، وهم السنيون الحرفيون ، ويعبر عنهم بالحشوية ، وبأهل السلف قالوا : ان لله سمعاً وبصراً ، تماماً كسمعنا وبصرنا ، وانه يشاهد بالعيان في الدنيا والآخرة . ومنهم ، وهم السنيون الاشاعرة قالوا : ان الله يُرى في الآخرة ، لا في الدنيا ، وان سمعه وبصره يليقان بذاته ، وليسا كسمعنا وبصرنا .

ومهما يكن ، فان كلًا من الحشوية والاشاعرة يثبت لله جميع الصفات ، كما وردت في ظاهر القرآن والسنة دون تأويل وتصرف ، واذا اختلفا في شيء ففي الاسلوب فقط ، اما الوقوف عند ظاهر النص فمحل وفاق بينهم ، ونقل عن الاشاعرة « ان مذهبهم يعتمد على الوحي اكثر من اعتماده على العقل ، بل صرح الاشعري بأن النظر العقلي المستقل عن الوحي لا يجوز أن يؤخذ طريقاً الى العلم بالشئون الالهية ، وهو - أي الاشعري - وان

رأى ان العقل في وسعه أن يدرك الله الا أن هـذا العقل عنده ليس الا اداة للادراك ، اما الطريق الوحيـــد لمعرفة الله فهو الوحي ، ومن هنا قيل : ان الاشعري لم يكن مجدداً مبتكراً بقدر ما كان جامعاً للآراء موفقاً بينها ، بل ان العقـــل عند الاشاعرة لا يوجب شيئاً من المعارف ، ولا يقتضي تحسيناً ولا تقبيحاً ، ومعرفة الله بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب »[١] .

ومن الشواهـد على أن الاشاعرة لا يعتـبرون العقل انهم يجيزون على الله أن يأمر بما لا يريد ، وينهي عما يريد مستندين في ذلك الى انه تعالى نهى آدم أن يأكل من الشجرة ، ثم قضى عليه أن يأكل منها ، وأمر ابليس أن يسـجد لآدم ، ثم حال بينه وبين السجود[٢] .

واختصاراً أن العقل لا شأن له ولا وزن عند السنة الحرفيين والسنة الاشاعرة ، فهو لا يدرك الخير والشر ، والحسن والقبـح ولا الاسباب والمسببـات بين الاحداث الطبيعية ، ويجير أن يرى الله عياناً ، وأن يأمر بما يكره ، وينهي عما يحب ، وان يكلف بما لا يطاق ، وان يعذب المؤمن الطيب ، ويثيب الكافر الخبيث ، وما الى ذلك ، من الاقوال والآراء التي تدل بصراحة ووضوح على الفصل بين العقل والشرع .

---

(١) كتاب « اسس الفلسفة » لتوفيق الطويل ص ٣٩٥ طبعة ١٩٥٥ .
(٢) « المذاهب الاسلامية » لابي زهرة ص ١٩١ .

تقديم العقل على الظاهر :

قال المعتزلة : اذا تعارض ظاهر النص مع العقل وجب تأويله بما يتفق مع منطق العقل ، وعلى هذه السبيل قالوا : ان الحسن والقبح يُدركان بالعقل لا بالشرع ، وأن الانسان مخير لا مسير ، وان الله يُرى بالبصيرة لا بالبصر ، وان سمعه وبصره كناية عن علمه تعالى ، وان معرفة الله تجب عقلاً لا شرعاً .

وقول المعتزلة هذا يتفق كل الاتفاق مع قول الامامية بأن الشرع والعقل لا يتصادمان بحال ، لان العقل شرع من الداخل والشرع عقل من الخارج ، والعقل يهتدي بالشرع ، والشرع يعرف بالعقل ، فهما أبداً ودائماً متحالفان متآزران ، كل منهما يحكم بما يحكم به الآخر ، وقد روى الشيعة عن أئمتهم أن لا دين له لا عقل له ، وانه ما عبد الله احد بشيء مثل العقل[1] وكيف يطيع الانسان اوامر الله ونواهيه بدون العقل ؟ ! ثم كيف يتنافى العقل مع الدين ويفصل بينهما ، وقد امر الدين باتباع العقل ، قال الله تعالى : « فاعتبروا يا اولي الالباب » وقال : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » وقال في آيات كثيرة : الا يعقلون ؟! . . ألا يتفكرون ، وما الى

---

(١) نقل الدكتور توفيق الطويل في كتاب « اسس الفلسفة » ص ٢٩٠ عن « كارادى فو » ما نصه بالحرف الواحد « التشيع رد فعل لفكر حر طليق يقاوم جموداً عقلياً بدا في مذهب اهل السنة » ، ثم قال الدكتور : « كان للشيعة فضل ملحوظ في اغناء المضمون الروحي للاسلام ، فان بمثل حركاتهم الجامحة تامن الاديان التحجر في قوالب جامدة .

ذلك من الآيات والاحاديث التي تعتبر العقل أساساً للدين ، قال محسن الفيض [١] في كتاب « عين اليقين : « العقل كالاساس ، والشرع كالبناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن اساس ، ولم يغن اساس ما لم يكن بناء » . واشترطوا لصحة التأويل شرطين اساسين : الاول أن لا يستقيم المعنى لو بقي الظاهر ، كما هو . الثاني أن يكون بين المعنى الظاهر ، والمعنى الذي يؤول به اللفظ مناسبة وموافقة ، ومثاله تفسير اليد بالقدرة في قوله تعالى: « يد الله فوق ايديهم » ، لان اليد مظهر للقدرة .

الظاهر والباطن :

قال جماعة من الصوفية : ان للنصوص الشرعية ظاهراً ، وباطناً ، والظاهر هو النص الجلي الواضح ، تماماً كالصورة المحسوسة الملموسة ، والنص الخفي هو الدقيق الغامض كالارواح المحجوبة عن العيان ، وقد جاء في الاحاديث النبوية ان للقرآن ظهر او بطناً ، وان لبطنه سبعة ابطن ، وفي حديث آخر سبعين بطناً ، اما السبب لتعدد البطون فهو ان احوال الناس مختلفة متباينة ، وعلى الحكيم ان يخاطب المستمعين حسب افهامهم وواقعهم، فمنهم من يخاطب بالظاهر فقط، لأنه لا يفهم سواه، ومنهم من يخاطب بالباطن ، لأنه يدركه ويفهمه ، ثم ان اهل الباطن على مراتب في عمق الفهم وبعد الادراك ، فمنهم من

---

(١) من علماء الامامية ، وله مؤلفات كثيرة في الفلسفة والاخلاق والمناقب وغيرها ، توفي سنة ١٠٩١ هـ .

يخترق ادراكه حجابا واحداً، ومنهم من يخترق اكثر من حجاب الى سبعين ، والمدير الحكيم يخاطب كلا حسب ما بلغ اليه من درجات الفهم والادراك .

وايضاً ان الله سبحانه خلق عالمين : عالم الشهادة ، وهو عالمنا هذا الذي نحياه ، ونعيش فيه ، وعالم الغيب ، وهو عالم ما وراء الطبيعة ، وكل شيء في عالم الشهادة ، له اصل في عالم الغيب ، وهذا الاصل هو الروح والحقيقة واللب الموجود في عالم الشهادة، وهذا الموجود هو قشر لذلك اللب ، وجسد لتلك الروح، وكما ان القشر ظاهر ، واللب باطن ، كذلك الموجودات في هذا العالم هي ظواهر واشارات الى الباطن الذي هو اللب والحقيقة، ومن اجل هذا قيل : ان الدنيا طريق الآخرة .

الجواب :

ان هذا الزعم لا يستند الى دليل، فان الله سبحانه قد كلف الناس جميعاً بتكليف واحد ولم يفرق بين فئة وفئة ولا بين فرد وفرد ، وخاطب الجميع بالقرآن الكريم واوجب عليهم العمل به ، ومحال ان يأمرهم باشياء لا يفهمونها ولا يهتدون اليها ، كيف وقد وصف الله القرآن بانه عربي مبين ؟! قال في الآية ١٠٣ من النحل : « وهذا لسان عربي مبين » وفي الآية ٢٨ من الزمر ،« قرآناً عربياً غير ذي عوج »الى غير ذلك من الآيات، هذا الى ان في القرآن آيات لا يمكن ان يكون وراء الظاهر

شيء كقوله تعالى « محمد رسول الله » وقوله : « قل هو الله احد » .

ومن مزاعم هؤلاء ان ظاهر الشرع لعامة الناس ، وباطنه للخواص العارفين، فالعبادة كالصوم والصلاة لا تجب على الصوفي العارف ، وانما تجب على العامة ، لأن الغاية من العبادة هي الوصول ، ومتى وصل العارف فقد بلغ الغاية ، وانتهى كل شيء ، ولم يبق للوسيلة من اثر ، فالدين ليس عقيدة يعتقدها الناس ، ولا شعيرة يؤدونها بين مجموعة من الاحجار تسمى معبداً ، وانما العقيدة هي الاعتقاد الحق بالله الذي يستلزم الانصراف الكامل عن الخلق ، والمعبد الحق هو القائم في القلب المقدس .

عظة وعبرة :

ولهم في اشارات الظاهر الى الباطن اقوال لا تخلو من عظة وعبرة ، منها هذا الحوار الطريف الذي دار بين الجنيد[1] وبين حاج فرغ من حجه :

قال الجنيد للحاج : هل رحلت عن جميع ذنوبك حين رحلت عن دارك قاصداً بيت الله الحرام ؟

الحاج : لا .

الجنيد : اذن انت لم ترحل . ثم قال له :

وحين لبست ثوب الاحرام ، هل خلعت صفات البشرية

(١) احد أئمة الصوفية ، توفي سنة ٢٩٧ هـ

عنك ، وانت تخلع ثيابك .
الحاج : لا
الجنيد : اذن انت لم تحرم ، ثم قال له :
وحين وقفت بعرفة ، هل عرفت الله حقاً ؟
الحاج : لا
الجنيد : انت لم تقف بعرفة . ثم قال :
وحين افضت الى المزدلفة ، هــــل رفضت جميع الاغراض الجسدية ؟
الحاج : لا
الجنيد : انت لم تفض الي المزدلفة ، ثم قال :
وحين طفت بالبيت ، هل ادركت الجمـال الالهي في بيت الطهر ؟
الحاج : لا
الجنيد : انت لم تطف بالبيت ، ثم قال :
وحين سعيت بين الصفا والمروءة، هل ادركت الصفا والمروءة؟
الحاج : لا
الجنيد : انت لم تسع ، ثم قال :
وحين جئت الى مِنى ، هل ذهبت عنك جميع المُنى ؟
الحاج : لا
الجنيد : انت لم تزر منى ، ثم قال :
وحين نحرت القربان ، هل نحرت الشهوات والغايات ؟
الحاج : لا

الجنيد : انت لم تنحر ، ثم قال :
وحين رميت الجمار ، هل رميت افكارك السوداء ؟
الحاج : لا
الجنيد : انت لم ترم الجمار ، وبالتالي ، انت لم تفعل شيئاً .

ولست اخفي على القارىء ان هذا الحوار قد ترك في نفسي اثراً بالغاً ، من حيث لا اريد ولا اشعر ، على الرغم اني من المؤمنين بوجوب الحج تعبداً على من استطاع اليه سبيلاً ، وان لم يتعظ من الله بواعظ ، ويزدجر منه بزاجر ، ولكني من المؤمنين ايضاً بقوله عز من قائل :

« يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم ـ ٨٩ الشعراء »

وهكذا سائر العبادات ، فان لكل ظاهر منها باطناً يقابله ، فالصلاة ظاهرها الركوع والسجود ، وباطنها الجذب والمعراج الى الله ، وحفظ القلب عمن سواه ، وتذلل له لا لغيره ، والطهارة ظاهرها غسل الاعضاء ، وباطنها التطهير بالعلم ، وما يستدعيه من الكمال ، حتى قوله تعالى : « وثيابك فطهر » معناه وقلبك فطهر .

للتسلية :

وهنالك تأويلات واشارات نذكرها للتسلية ، مثل قولهم بان الالف في « الم » اشارة الله ، واللام الى جبريل ، والميم الى محمد ، وان قصة موسى وفرعون في القرآن تشير الى صراع

النفس الامارة التي ترمز اليهـا لفظة فرعون ، والنفس المطمئنة التي عبر عنهـــا بلفظة موسى ، وان معنى يذبحون ابناءكم ، يذبحون فيكم الصفات الحميدة، ومعنى يستحيون نساءكم يستبقون الشهوات الحيوانية ، وقالوا في تفسير قوله تعـالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » : ان الانسان قبل ان يوجد كان صائماً عن الاهواء ، وبعـد ان وجد كتب عليه ان يكون بعد وجوده ، كما كان قبل وجوده !..

اما قول الرسول (ص) صوموا للرؤية ، وافطروا للرؤية فمعناها امسكوا العقول عمـا يصرفها عن الله ، فاذا رأيت الله فلا يضركم ان تأكلوا وتشربوا ، وفسروا قوله تعالى : « انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً» فسروا الماء بالعلم ، والاودية بالقلوب ، والزبد بالضلال ، الى غير ذلك من الاوهام والتخيلات .

وقد يستحسن القاريء شيئاً من هـذا التفسير والتأويل ، حيث يسمو بالانسان عن الظواهر والاشكال ، ويكشف له عن اشياء جديدة وعميقة ، ولكن الاستحسان شيء ، ودلالة اللفظ شيء آخر ، فقولك : النظـام خير من الفوضى حق وحسن في نفسه ، ولكن لفظة حجر وحـــديد لا تدل عليه من قريب او بعيد .

العبادة تجارة :

وقال قائل منهم : يجب الغاء العبادات كلها من الاساس ، فلا صيام ولا صلاة ، ولا حج ، ولا شيء على احد ابداً اياً كان من الخاصة او العامة ، لأن هذه سبيل النفاق والرياء يتخذها المرتزقة وسيلة للعيش ، واداة للكسب وشبكة للصيد !.. سمع هذا القائل، او من هو على شاكلته مؤذناً يصيح على المأذنة، فقال له : سم الموت .

وفي الوقت نفسه سمع كلباً ينبح، فقال: لبيك وسعديك.. ولما سئل عن السبب قال : ان المؤذن ذكر الله بنفس ملوثة ، واخذ الاجر على الاذان ، ولولاه لم يتعرف على الله ، ولم يذكره بشيء ، اما الكلب فانه سبح بحمد الله لا للاجرة ، وبنفس طاهرة صافية، وسمع مرة اسم آدم، فقال : ومن آدم؟! هذا الذي باع ربه بلقمة !. وبعضهم كان يعطف على ابليس وفرعون ، ويعتذر عنهما .

وليس من شك ان الكثير ممن عرفنا ، وممن لم نعرف قد اتخذوا من الدين والعبادة حانوتا للتجارة[1] ولكن هذا ليس

---

(١) في جريدة الجمهورية المصرية عدد ١٧ شباط سنة ٦١ ان الولايات المتحدة جمعت اللصوص والمجرمين ، وسلمتهم للقسيسين والرهبان ، واعطتهم الاموال باسم اغاثة اللاجئين ، وتعليم الدين واوعزت الى رجال الدين ان يدربوهم على عمليات التخريب حتى اذا اتقنوها ارسلتهم الولايات المتحدة الى كوبا ، ليحدثوا الفوضى والاضطراب ! .. واني اعرف « رجالا » يلبسون ثوب الدين ، ويتلقون اوامر شيطانية من المتزعمين ، ويعملون في الخفاء ما يلعنهم بهم اهل الارض والسماء ..

نقصاً في العبادة كحقيقة دينية ، وانما النقص في الذين يتاجرون بالدين ، تماماً كالذين يسيئون استعمال الحرية والسلطة والقانون والطب والادب ، ومـا الى ذاك ، فان وجودهم لا يستدعي الغاء التطبيب، واهمال الادب، ولا يبرر الدكتاتورية والفوضى، ان المشكلة ليست مشكلة العبادة والمعابد، بل مشكلة المحترفين بها ، ففيهم يكمن الداء ، لا في العبادة ، فيجب القضاء عليهم ، لا عليها ، والمريض لا يداوى بالقضـاء عليه ، بل بالقضــــاء على المرض .

التنسك



الانبياء والاولياء :

جاء في كتب التفسير والمواعظ ان موسى كليم الله (ع) كان غالب قوته من نبات الارض ، واوراق الشجر ، وقد هزل حتى دق عظمه ، وانهضم لحمه ، وحتى بانت الخضرة من ظاهر بطنه ، وحتى ناجى ربه سائلاً متضرعاً : « رب لما انزلت الي من خير فقير » قال الامام علي بن طـــالب (ع) : والله ما سأله الا خبزاً يأكله .

وان عيسى روح الله (ع) كان يفترش الارض ، ويتوسد الحجر ، ويقتات النبات ، ويقول : دابتي رجلاي ، وخـادمي يداي ، وفراشي الارض ، ووسادي الحجر ، وسراجي القمر ، ودفئي مشارق الارض ، وادامي الجوع ، وشعاري الخوف ، وليس لي ولد يموت ، ولا امرأة تحزن ، ولا بيت يخرب ، ولا مال يتلف ، ابيت وليس لي شيء ، واصبح وليس شيء ، فانا اغنى ولد آدم ..

وان محمداً رسول الله (ص) لم يشبع هو واهل بيته غدوة الا جاعوا عشية ، ولم يشبعوا عشية الا جاعوا غدوة ، قالت عائشة ، كان يأتي علينا اربعون ليلة لا نوقد في بيت رسول الله ناراً ولا مصباحاً . فقيل لها : فيم كنتم تعيشون ؟. قالت : بالاسودين : التمر والماء . ودخل عمر على رسول الله (ص) فوجده على حصير قد اثر في جنبه ، فكلمه في ذلك . فقال : مهلاً يا عمر ، اتظنها كسروية ؟!.

اما علي بن طالب فكان كما قال عبدالله بن عباس : كانت الدنيا اهون عليه من شلح نعله، وكانت نعله من ليف لا تساوي كسر درهم ، قال ابن عباس : دخلت على امير المؤمنين ، وهو خليفة ، فوجدته يصلح نعله ، فقلت له : ماذا تصنع ؟!. دعنا من هذه ، فلم يكلمني حتى فرغ ، ثم ضممها ، وقال : قومها . قلت : لا قيمة لها . قال : قومها على ذلك . قلت : كسر درهم. قال : والله لهي احب اليّ من امركم هذا الا ان اقيم حقاً ، او ادفع باطلاً . وقال سويد بن غفلة : دخلت على امير المؤمنين بعدما بويع بالخلافة ، فوجدته جالساً على حصير صغير ، وليس في البيت غيره . وكان يأتيه المال فيوزعه على الناس ، ولا يبقي لنفسه شيئاً ، ثم يحمل مساحته ، وينطلق بها الى العمل في الارض ، وكذا زهد في الدنيا جماعة من الاصحاب والتابعين واكابر الدين .

تساءل :

ونتساءل : لماذا تنسك الانبياء ، ومن سار على سنتهم من

الأئمة والاولياء ؟ لماذا زهدوا في الدنيا، ورضوا منها بالكفاف، او بما دونه ؟ هل لأن التنسك حسن وخلق كريم ، يطلب لذاته كغاية لا كوسيلة الى غيره ؟ او ان الانبياء والاولياء تنسكوا ، لأن الدنيا ليست بالشيء ، ما دامت ممراً لا مقرا ، أو « كمنزل راكب اناخ عشياً وهو في الصبح راحل » فهي ، وهذه حالها ، لا تستأهل العناية والاهتمام، او انهم تنسكوا لأن التنسك يفتح لهم ابواب المعرفة الى حقائق الغيب وعالم الملكوت، كما يقول اصحاب التصوف النظري ، او لأنهم ارادوا أن يقدروا انفسهم بالضعفاء والبؤساء ؟..

وبديهة ان افعال الانبياء ليست كافعال الناس تفتقر الى ادلة تبررها ، بل هي بنفسها الحجة والدليل والمقياس الذي تقاس به الحقائق ، ويعرف الخطأ من الصواب ، هي الهدي والنور الذي يهدي للتي هي اقوم .

الجواب :

ان الزهد والتنسك غير مطلوب ولا محبوب في ذاته ، فقد نهى الله سبحانه عن حرمان النفس مع القدرة والاستطاعة ، فقال عز من قائل : « ولا تنسى نصيبك من الدنيا » وقال : « لا تحرموا طيبات ما احل الله » وقال : « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقد تعوذ النبي (ص) من الفقر ، كما تعوذ من الشيطان ، وقال علي (ع) لولده محمد : يا بني اني اخاف عليك الفقر ، فاستعذ بالله منه ، ولا شيء ادل

على ان الزهد ليس بالمكانة القصوى عند أئمة العلم والدين من قول الامام الباقر: « اعلى مراتب الزهد ادنى مراتب الورع ».

واما وصف الدنيا بانها حلم وممر فلا يستدعي اهمالها وعدم العناية بها ، واذا كانت حلماً فلتكن حلماً عذباً لا عذابا ، وممراً سهلًا لا عسر فيه ، واذا كانت لا تعادل عند الله شيئاً ، لانه في غنى عنها فنحن في اشد الحاجة اليها ، لأننا منها ، وهي منا ، ومن هنا كان لاغاثة الملهوف وعمل المبرات والخيرات المنزلة الاولى عند الله، وكان اهل المعروف في الدنيا هم اهل المعروف في الآخرة . ان في الانسان ، أي انسان – ولو معصوما – رغبة ذاتية في الاستمتاع بالحياة وملذاتها ، نقل صاحب سفينة البحار في مادة « كبد » عن كتاب مصباح الانوار ان امير المؤمنين علياً اشتهى كبداً مشوية في خبزة لينة ، فذكر ذلك لولده الحسن ، فصنعها له ، وكان صائماً ، فلما اراد ان يفطر قدمها اليه ، وما ان مد يده ، حتى وقف سائل في الباب ، فقال : يا بني احملها اليه . ومن ذا الذي لا يريد ان تكون له زوجة شابة جميلة عفيفة موافقة ، تقدم له طبقاً فيه ما لذ وطاب؟!. ان هذا وما اليه ليس محظوراً ، ولا مكروهاً ، وانما المحظور ان تأخذ ما ليس لك بحق ، وان تتنعم على حساب غيرك .

وأما ان الانبياء تنسكوا توصلًا الى معرفة الحقائق فبعيد عن الصواب، لأنهم في غنى عن ذلك ما دام الوحي ينزل عليهم من السماء تلقائياً بدون عملية التفكير ، ولا رياضة النفس التي

ان انتجت فلا تنتج يقيناً كالوحي الذي لا يقبل الشك والريب.

فلم يبق لزهدهم وتنسكهم من سبب الا الرغبة في المساواة بينهم وبين المستضعفين والمحرومين ، والا الثورة على الذين لا يعبئون باي من قيود الدين والاخلاق . ان الانسان يندفع بفطرته نحو السعادة بشتى معانيها ، سواء في ذلك العارف المخلص وغير المخلص ، والفارق الوحيد بين الاثنين ان المخلص يحترم هذا الدافع والشعور عند غيره ، ويفسح له مجال العمل . والسعي لتحقيق هذه السعادة، بل يجاهد ، ويكافح، ليحقق الخير للجميع بدرجة متساوية بين الناس جميعاً ، فالسعادة في نظره امر عام لا خاص ، فاذا لم تتحقق بمعناها الشاكل الكامل انصرف عن الاهتمام بنفسه ، وساوى الضعفاء في بؤسهم وشقائهم ، اما الانتهازي المحترف فعلى العكس ، لا يرى السعادة الا في الاستئثار والاحتكار .

وبعبارة ثانية ان الخيرين ينظرون الى جميع الناس كأسرة واحدة في بيت واحد، يستوون في الهناء والشقاء، فان استطاعوا ان يحققوا السعادة للجميع فذاك ما يبتغون والا قدروا انفسهم بالضعفاء . قال العلاء بن زياد الحارثي للامام علي (ع) ، وكان من اصحابه ، قال له : اشكو اليك اخي عاصماً . قال : ماله ؟ قال : لبس العباءة ، وتخلى عن الدنيا. قال : عليّ به . فلما جاء، قال له : يا عدو نفسه ، لقد استهام بك الشيطان ، اما رحمت اهلك وولدك ؟! أترى الله احل لك الطيبات ، وهو يكره ان

تاخذها ؟! انت اهون على الله من ذلك .

قال عاصم : يا امير المؤمنين هذا انت في خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك . قال : ويحك ، اني لست كأنت، ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة النـاس ، كيلا يتبيع بالفقير فقره ، اي يهيج به الم الفقر فيهلكه . وقـول الامام « استهام بك الشيطان » يدل على ان التنسك مكروه الا لغاية جيدة ، كالمساواة وما اليها .

هذي هي فلسفة الزهد المرغوب فيه ، انه نظـام المساواة يطبقه المخلصون على انفسهم بالافعال قبل الاقوال ، وهو في الوقت نفسه رد فعل لترف المترفين، واحتجاج على من يتنعمون على حساب المظلومين . كان اويس القرني ، وهو امام الصوفية وسيدهم ، كان يتصدق بما يزيد عن مأكله وملبسه ، ثم يخاطب الله بقوله : « اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به ، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني » .

وليس عمل اويس هذا تضحية ، وكفى ، بل وحجة دافعة تدين المحتكرين بقتل من يموت جوعاً وعُرياً .. وكان اويس من التابعين ادرك الصحابي الجليل اباذر الذي ثار على تصرفات عثمان في اموال المسلمين ، واسراف معاوية في البذخ ، وبناء الدور والقصور ، وبهذا يتبين ان التصوف الاسلامي نشأ اول ما نشأ احتجاجاً على الاثرياء الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ثم تطور مع الزمن الى تصوف نظري ،

وجعله سبباً من اسباب المعرفة ، ثم الى الاتحاد والحلول ، ثم الى حلقات الذكر ، ولبس المرقعات ، والاستجداء ، وشرب الافيون ، وما الى ذلك .

الشواهد:

ومن الشواهد على ان التصوف كان عند الصفوة الاخيار ثورة على حكام الجور والطبقة المستغلة جهاد ابي ذر وكفاحه ضد الحاكمين في عهده ، ومنها ما جاء في ترجمة الجنيد انه « كان اللواء الذي ارتفع لتنتظم حوله كتائب المؤمنين المجاهدين المناضلين ضد الانحلال والتخاذل والمادية التي بدأت تطغي على المجتمع الاسلامي »[1] ومنها وصايا الصوفية « لا تأخذ اكثر مما تحتاج » ، ومنها ان هارون الرشيد كان يسير ، وبين يديه الاحمال والخدم والعبيد ، فصاح به صوفي ، قائلاً : يا هارون اتعبت الناس والبهائم ، وقال له صوفي آخر : ان كل واحد من الناس مسئول عن نفسه ، وانت مسئول عن جميع الناس .

ومنها ان المأمون اشرف يوماً من قصره، فرأى فقيراً بيده فحمة يكتب بها على حائط القصر الذي يقيم به هذين البيتين :

يا قصر جُمع فيك الشؤم واللؤم
حتى يعشش في اركانك البوم
يوما يعشش فيك البوم من فرحي
اكون اول من يرعاك مرعوم

(١) شخصيات صوفية لطه سرور ص ١١٩ طبعة ١٩٤٨

فقال له المأمون : ما حملك على هذا ؟! فقال : لقد حوى قصرك من خزائن الاموال والحلي والحلل مالا يعد ولا يحصى، والناس تموت جوعاً ، حتى كأن الدنيا لك دون سواك ، ثم انشد :

اذا لم يكن للمرء في دولة امريء
نصيب ولاحظ تمنى زوالها

الى غير ذلك من مواقفهم التي لا يبلغها الاحصاء .

وكان الصوفية يسلكون في تقريع الحكام وتأنيبهم شتى الطرق والاساليب ، قال ابن السماك للرشيد : لو حبست عنك شربة ماء أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . قال : لو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . قال : ما خير ملك لا يساوي شربة ولا بولة ؟!.

وحاول الساسة ان يشتروا من الصوفية دينهم وضمائرهم ، وان يدفعوا ثمن السكوت عن ظلمهم ومساوئهم بالغاً ما بلغ ، بل حاول الكثير منهم ان يتخذوا من الزهاد والعباد اداة لبث الدعاية ، ونشر ما يحبون ان يتصوفوا به من العدل والايمان فرفض المخلصون، واستجاب المحترفون قال زكي مبارك في كتاب « التصوف الاسلامي » ج ص ٣٣٨ طبعة ١٩٥٤ : « والشعراني نفسه استخدمه حكام عصره في تجميل سمعتهم بين الناس،ودفعوا ثمن ذلك بالسكوت عن اوقاف زاويته ، وكانت تحيط بها

شبهات » ومبارك نقل هذا عن صاحب الدرر المنظمة في الخطط التوفيقية جزء ١٤ صفحة ١٠٩ .

وبالتالي ، فان الحوادث والارقام تدل بصراحة على ان التصوف في صدر الاسلام لم يكن مقصوداً لذاته ، وانما جاء نتيجة لامر غير مقصود ، نتيجة للاوضاع الفاسدة التي كان عليها المجتمع ، ولكن هذه النتيجة لم تحل المشكلة ، ولم تصلح شيئاً من الفساد ، كما انها لم تستمر الى النهاية خالصة لوجه الله ، كما كانت في البداية .

التصوف ونظرية المعرفة



ما هي المعرفة ؟ وما هي مصادرها ومنابعها ؟ ما هو القياس الصحيح العام الواضح الذي نميز به صحيح الاشياء من باطلها ؟ وبالتالي ، هل من الممكن أن يكون حدس القلب سبباً من أسباب المعرفة ؟

المعرفة :

اذا كنت « واقعياً » ومن الذين يقولون ويؤمنون بان للعالم وجوداً مستقلاً عن الادراك فيمكنك أن ترسم المعرفة بانها صورة الشيء عند العقل كما هو في الواقع ، وترسم هذه الصورة في العقل بواسطة آلات البدن ، كالسمع والبصر والذوق واللمس والشم ، او بواسطة الفكر والتأمل .

وان كنت « مثالياً » ومن الذين يرون أن العالم لا وجود له في الخارج ، وانما الموجود هو ادراك الاشياء ، لا الاشياء نفسها فالمعرفة على هـــذا هي نفس الادراك لا صورة الشيء الموجود ، اذ لا حقيقة للوجود الخارجي أبداً على هذا الافتراض .

أسباب المعرفة وأقسامها :

تنقسم المعرفة باعتبار اسبابها الى اربعة أقسام :

١ - المعرفة بالحس : كتصور الحرارة والنور والطعم والصوت ، والرائحة .

٢ - المعرفة بالعقل : كمعرفة الحقائق الحسابية والهندسية .

٣ - المعرفة بالوحي : كمعرفة وجوب الصوم والصلاة ، وما الى ذلك مما يؤخذ من كتاب سماوي ، او حديث نبوي ، ويسمى مصدر هذه المعرفة بدليل السمع والنقل تمييزاً له عن دليل العقل .

٤ - المعرفة بالقلب : وهي ظاهرة فريدة وغريبة عن اذهاننا لانها لا تنشأ من الحس والتجربة ، ولا من العقل ، واقيسته المنطقية ، ولا من الوحي والاحاديث النبوية ، لا من كتاب ولا استاذ ، لا من شيء سوى الهام القلب وحدسه واشراقه ، وتنبوئه الصادق . وهذه هي طريقة أهل التصوف ، حيث قالوا: العلم علمان : علم الكسب ، وعلم الوهب . والاول يأتي من الحس والتجربة والعقل ، ويختص بالعلوم الدنيوية ، كالعلوم الطبيعية والرياضية ، والثاني يأتي من الالهام ، والالقاء في القلب ، ولا يحصل هذا الالقاء الا للصفوة الخلص ، ويختص بالعلوم الدينية وما يتصل بها ، كمعرفة الله وصفاته ، وحقيقة النبوة والوحي والرسالة ، والحياة الآخرة ، وصفات الجنة والنار ، واسرار العالم وخلقه من بدايته الى نهايته ، ومعرفة الخير والشر ،

وحقيقة الانسان والغاية من وجوده . وهذه الحقائق على ما هي عليه في علم الله تعرف بالقلب لا بالعقل ، لامور :

١ ــ ان اقرب الحقائق الى الانســان نفسه التي بين جنبيه ، وهو عاجز عن ادراكـها ، فكيف يقدر على معرفة الحقائق البعيدة عنه ، وعن الطبيعة بكاملها ؟!

٢ ــ ان نظر العقل يتبـع استعداد الناظر ، ويختلف باختلاف ظروفه وملابساته ، ومن هنا قيل : ان الانسان عين ما يأكل ويشرب ويلبس ، وينظر ويلمس ، وبديهة ان لكل انسان ظروفاً تبـاين ظروف سواه ، ومتى تناقضت الآراء وتضاربت استحال الاعتماد عليها جميعاً ، كما انه لا يجوز الاخذ بأحـدها دون الآخر ، لانه ترجيـح بلا مرجح ، ولأن احتمال البطـلان عارض على الجميـع .

٣ ــ ان الناظر كثيراً ما يعتقد بصحـة شيء ، ويبقى على ذلك أمداً مديداً ، ثم يتبين له الفساد ، فيتبدل رأيه واعتقاده ، مع العلم بأن السبب الثاني الذي دعاه للعدول ليس بأقوى من الاول ، ولا اقل من الشك ، فالاثنان اذن لا يؤخذ بهما[١] .

ومن هذه الادلة ، وما اليها يتبين معنا انه لا يمكن الاتكال على شيء من نظر العقل ، فيتعين الرجوع الى القلب .

---

(١) هذه الادلة جاءت في كتاب « مصباح الانس » للقونوي تلميذ الشيخ ابن عربي .

الحس الصائب :

ولكن الحس الصائب لا يحصل للقلب الا بعد رحلة طويلة وخطيرة ، وهي ان يجاهد الانسان نفسه ، ويروضها على التوجه الى الله وحده ، والالتجاء اليه في جميع الامور ، والابتعاد بها عن النقائص والرذائل ، حتى تحصل لها طهارة اللسان بالتعبير عن الصدق والعدل ، وطهارة الفرج عما حرم الله ، وطهارة اليد عن العدوان ، وطهارة العين عن النظر بريبة وسؤ نية ، وطهـــارة السمع عن الكذب والغيبة ، وطهارة العقل عن الجهل والتقليد ، وطهارة القلب عن الحسد والحقد ، وطهارة الخيال عن الامـاني والافكار السوداء ، ومتى تم للانسان هـذه الفضائل القى الله النور في قلبه ، واصبح صادقاً في حدسه ، كانه الوحي لا يقبل الشك والريب .

نحن والتصوف :

لا اريد ان افاضل بين القلب والعقل ، كوسيلتين المعرفة والكشف عن الحقيقة ، فان هذه المفاضلة اشكل واخطر القضايا الفلسفية على الاطلاق ، وانمـا اريد التعبير عما شعرت به ، وانا ابحث وانقب في كتب التصوف ، واتأمل وافكر في كلمات المتصوفة ، فلقد كنت قبلا اسخر من التصوف ، وممن يراه شيئاً مذكوراً ، وبعد أن تفهمته على حقيقته آمنت بانه يستأهل العناية ، وان اهتمام الاولين والاخرين به لم يكن عبثاً ، وان من يسيطر على نفسه ، ويسير بهـا في سبيل النبل والرفعة ، ويتقي الله حق

نقاته ويتخلق باخلاقه الفاضلة لا بد ان يؤيده الله بروح منه ، ويبلغ به الى المعرفة بعظمة الله، وبالحكمة التي منحها الله للانبياء، والاولياء ، والتي يميز بها بين الخير والشر والحق والباطل ، والقبح والجمال .

ان الفضائل متآخية متشابكة يدعو بعضها الى بعض ، وكل خلق كريم يطرد خلقاً لئيماً، تماماً كالجسم القوي المنيع يقاوم الاسقام ، ويزداد قوة ونشاطاً ، وقد جاء في القرآن الكريم : « والذين اهتدوا زدناهم هدى » .

اما الرذائل فهي كامراض الجسم يؤدي بعضها الى بعض ، قال تعالى : « واما الذين في قلوبهم مرض رجسا الى رجسهم ». ومن هنا تسود الفضيلة حيث يوجد النظام والايمان ، وتسود الرذيلة في بيئة الفوضى والالحاد .

الى الذين يزكون انفسهم



قال الامام علي (ع) : « وايم الله يميناً ، استثني بمشيئة الله، لاروضن نفسي رياضة تهش معها الى القرص اذا قدرت عليه مطعوماً ، وتقنع بالملح مأدوماً » .

ان رضى النفس بقرص الشعير والملح مع قدرتها على لباب القمح، والعسل المصفى فضيلة في نفسه، وبالقياس الى غير الامام، اما بالقياس الى من عف وكف عن ابن العاص الذي قاد الجيوش الى حربه والقضاء عليه ، وصفح عن مروان بن الحكم ، وابن ارطاة، اما بالقياس الى من سقى اعداءه الماء بعد ان منعوه منه ، وحاولوا قتله عطشاً، واوصى بقاتله خيرا ، وقال لابنائه: « وان تعفوا اقرب للتقوى » ، اما بالقياس الى علي بن طالب فان الرضى بالقرص لا يعد شيئاً مذكوراً .

والحقيقة اني لم افهم معنى لقول الامام: « لاروضن نفسي» وقوله :« وانما هي نفسي اروضها بالتقوى »الا على سبيل التنازل والتواضع. وهل تميل نفسه الى غير التقوى حتى تحتاج الترويض والتمرين ؟! ان نفسه هي التقوى وميزان الحق ، والصراط

القويم الى الله وكتابه وشريعته ، انها نفس محمد (ص) بالذات الا انه لا نبي بعد خاتم الانبياء وسيدهم .

ان قلت : ان هذا لا يتفق مع قول الامام : « وخدعتني الدنيا بغرورها ، ونفسي بخيانتها ، وقول : اللهم لا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي من سوء فعلي واساءتي ، ودوام تفريطي وجهالتي ، وكثرة شهواتي وغفلتي . وقوله ايضاً : الهي ومولاي اجريت عليّ حكماً اتبعت فيه هوى نفسي ،ولم احترس فيه من تزيين عدوي ، كما يتنافى ايضاً مع قول الامام زين العابدين : مالي كلما قلت : قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية ازالت قدمي ، وحالت بيني وبين خدمتك » . فان هذا اعتراف صريح بان الامام مغلوب لا غالب للدنيا وكثرة الشهوات !.

الجواب :

اولاً ـ ان هذا اعتراف بالعبودية لا بالذنب ، وتعظيم وانكسار له ، والتجاء اليه ، وتوكل عليه، وهو ضرب من عبادة الاصفياء ، بل من اعلا مراتب العبادة وانواعها .

ثانياً ـ ان السر لعظمة العظماء يكمن في تواضعهم واتهامهم لانفسهم ، فهم في خوف دائم من التقصير وعدم القيام بما يجب، ومهما قدموا للانسانية من جليل الاعمال ، وقاموا لله بالعبادات والطاعات، فلا يرونها شيئاً في جنب الله ، ويطلبون من انفسهم المزيد من الجد والاجتهاد ، انهم يعرفون جلال الله وقدرته ، وعزته وعظمته ، فلا يعظم شيء سواه في اعينهم ، وان عظم ،

قال الامام : « ان من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من قلبه ان يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه » هذا هو شأن العارفين المخلصين اصحاب الهمم والطموح ، وشأن الاحرار الذين يملكون انفسهم ، ولا يملكهم شيء ، ويتطلعون دائماً الى رحمة الله ومرضاته .

ثالثاً – ان اهل الصدق والايمان يسلكون في جميع اقوالهم وافعالهم طريق الحذر والاحتياط ، فاذا تحدثوا عن انفسهم انتقدوها ، واتهموها بالتواني والكسل ، بل كثيراً ما يبلغ بهم الامر الى توبيخها وتأنيبها ، ولا شيء اثقل عليهم من المدح والاطراء ، وقد جاء في الحديث : « احثوا في وجوه المداحين التراب » ومدح امير المؤمنين قوم في وجهه ، فقال : « اللهم انك اعلم بي من نفسي ، وانا اعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون ، واغفر لنا مالا يعلمون » .

اما الذين يزكون انفسهم ، ويبرأونها من كل عيب فانهم لا يشعرون بواقعهم ، ولا يعرفون شيئاً من داخلهم ، وهم الذين عناهم الله سبحانه بقوله : قل هل انبئكم بالاخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » . قال احد علماء النفس في تعريف الانسان : « انه الحيوان الوحيد الذي يستطيع ان يكذب » . والاولى ان يقال في تعريفه : انه الحيوان الوحيد الذي تكذب عليه نفسه فيصدقها، تقول له: انك صادق امين ، وشجاع كريم ، وعالم عظيم ، فيقول: اجل انا كذلك وفوق ذلك ، وصدق من قال : « ان في اعماق كل

منا يكمن صحفي خداع يلفق الانباء ، ويموه الحقائق ، ويختلق الشائعات ، ويمزج الحق بالباطل » .

وبهذا يفترق الصوفي الحق عن غيره، حيث لا يوجد في اعماقه صحفي خداع يلفق الانباء ، ويموه الحقائق ، قال الرشيد لأحد الصوفية : ما احسن ما بلغني عنك!. فقال له : والله اني لخائف على نفسي من قلة الخوف عليها . وقال رجل للامـام الصادق : اوصني يابن رسول الله . فقال له: من مثتمك فقل له : ان كنت صادقاً غفر الله لي ، وان كنت كاذبا غفر الله لك ، ومن قـال لك : ان قلت كلمة سمعت عشراً، فقل له : ان قلت عشراً لن تسمع واحدة .

التصوف وأهل البيت



اهتم أهل البيت (ع) اهتماماً بالغاً بالأدعية ، والأوراد ، ووضعوا لها صيغاً خاصة ، حفظها عنهم شيعتهم وأتباعهم ، وألفوا فيها الكتب والمجلدات . قال زكي مبارك في المجلد الثاني من كتاب « التصوف الاسلامي » : « كانت ادعية زين العابدين مما اهتم به الشيعة اهتماماً شديداً ، فصححوا رواياتها ، ونقدوها ، وكتبوها بالذهب في كثير من البلدان . . والصوفية يعتقدون ان زين العابدين كان من اهل الاسرار » .

وتكلمت عن هذه الأدعية والاوراد في كتبي « مع الشيعة » و « اهل البيت » و « الاسلام مع الحياة » و « الآخرة والعقل » و « المجالس الحسينية » . والآن اقتطف جملاً من دعاء كان يدعو به الامام الشهيد الحسين بن علي في يوم عرفة :

القضاء والقدر :

« منه » : « الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع ، ولا لعطائه مانع ، ولا لصنعه صانع » .

ينسب القضاء الى الله سبحانه ، والى غيره ، ونسبته اليه عز وجل تأتي على معنيين : الاول على معنى الخلق والتكوين ، كقوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات » اي اوجدهن و كونهن. الثاني على معنى الامر والحكم التشريعي ، كقوله سبحانه في الآية ١٧ من الاسراء : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً » أي أمر بذلك ، وقال عز من قائل : « ان الحكم الا لله امر أن لا تعبدوا الا اياه ذلك القيم — ٤٠ يوسف » .

واذا نسب القضاء الى الانسان يكون على معنى الحكم ، كقوله في الآية ٦٥ من النساء : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » أي مما حكمت وامرت .

و « منه » : « اللهم اجعلني اخشاك كأني اراك ، واسعدني بتقواك ، ولا تشقني بمعصيتك . . وبارك لي في قدرك حتى لا اتعجل ما اخرت ، ولا تأخير ما عجلت » .

كنت ، وما زلت أتساءل : هل الذين يعصون الله ، ويتجاوزون حدوده يؤمنون بالله واليوم الآخر ، او انهم يتظاهرون بالايمان رياء ونفاقا ؟ . . وبكلمة هل يجتمع الايمان مع العصيان ؟

تساءلت عن ذلك ، ولم اجد الجواب المقنع لا عند نفسي ولا فيما سمعت وقرأت ، وربما يجاب عن هذا التساؤل :

اولا بأن العاصين يؤمنون بالله ، ولكنهم يرجون عفوه

ومغفرته ، ويعتمدون على قوله سبحانه : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وبديهة أن الغفران لا يأتي جزافاً ، بل لا بد له من سبب تقتضيه الحكمة الالهيـــة ، والا لم يكن للتكليف وتشريـع القوانين من فائدة ، وكان الطائع والعـاصي ، والمحسن والمسيء سواء في نفي المسئولية وعـدم العقاب ، وكلنـا يعلم أن سبب الغفران هو التوبة والانابة ، والرجوع الى طاعة الله مع الندم والعزم على عدم العودة الى العصيان ، أما من اصر على الذنوب، وبخاصة الكبائر منها فأمره صعب عسير .

ثانياً انهم مؤمنون، ولكن ايماناً ضعيفاً لا يقوى على مقاومة العاطفة والمغريات ، فاذا اصطدم معهـا كان مغلوباً لا غالباً ، فكما ان ضعيف الجسم يتغلب عليه من هو اشد واقوى كذلك ضعيف الايمان تصرعه الاهواء والشهوات .

ومهما يكن ، فان الايمـــان لا يتجزأ ، فاذا صلى الانسان وصام ، وهلل وكبر بدافع الدين ، فينبغي له أيضاً ان يمتنع عن الكذب والرياء والدس والخيانة ، وما الى ذلك من المحرمات والموبقات ، يمتنع عنهـا بهذا الدافع ، والا كان ايمانه تصوراً وتخيلاً ، اشبه بأريحية البخيل واهتزازه حين يستمع الى حديث الشجاعة . ان المؤمن حقـــاً هو الذي يعمل ، وكأنه في يوم الحساب ينظر الى الخلائق ، وهم امام الله سبحـانه يجازي كلًا بأعماله ، تماماً كما قال الحسين : « اللهم اجعلني اخشـاك كأني اراك » وكما قال ابوه امير المؤمنين : « اعبد الله كأنك تراه ،

فان لم تكن تراه فانه يراك » .

و « منه » اللهم اجعل غناي في نفسي ، واليقين في قلبي ، والاخلاص في عملي ، والنور في بصري ، والبصيرة في ديني » .

ان كل واحد من الناس كائناً من كان يحتاج الى الناس ومحال ان يتم المجتمع ويكتمل بدون التعاون ، فانت متمم ما في غيرك من نقص ، وغيرك متمم ما في غيرك من نقص ، وغيرك متمم ما فيك من نقص ، والكل يسيرون في طريق الاكتمال الاجتماعي . واذا لم يكن الانسان كائناً مستقلاً عن غيره ، فكيف سأل الحسين ربه سبحانه أن يجعله غنياً في نفسه ؟!

الجواب :

ان التعاون على الخير فضيلة من غير شك ، لانه ضرورة اجتماعية ، اما العيش على حساب الآخرين ، وبيع الدين والكرامة بالدنيا وحطامها فرذيلة ممقوتة يتعوذ منها كل مخلص ، كما يتعوذ من الشيطان ، والحسين (ع) سأل ربه الغنى عن كل موقف مشين يمس من دينه وكرامته ، سأله أن يكون غنياً في عمله وجده واجتهاده ، واثقاً بالله دون غيره ، مفتقراً اليه دون سواه .

قال الامام الصادق (ع) : « اتقوا الله وصونوا أنفسكم بالورع .. والاستغناء بالله عن طلب الحوائج الى صاحب سلطان واعلموا ان من خضع لصاحب سلطان ، او لمن يخالفه على دينه طلباً لما في يده من دنياه اخمله الله ومقته عليه ، ووكله اليه ، فان هو غلب على شيء من دنياه فصار اليه منه شيء نزع الله

البركة منه ، ولم يؤجره على شيء ينفقه في حج ، ولا عتق ، ولا بر . ونقل عن الشيخ البهائي انه عقب على هذا الحديث بقوله: « صدق الامام ، فقد جربنا ذلك ، وجربه المجربون قبلنا ، واتفقت الكلمة منا ومنهم على عدم البركة في تلك الاموال ، وسرعة نفادها واضمحلالها ، وهو أمر ظاهر محسوس يعرفه كل من حصل على شيء من تلك الاموال الملعونة » .

وجاء في الحديث الشريف عن الرسول الاعظم « اللهم ارزق محمداً وآل محمد ، ومن أحب محمد او آل محمد الكفاف والعفاف » .

وقال الحسين : « اللهم حاجتي التي ان اعطيتنيها لم يضرني ما منعتني ، وان منعتنيها لم ينفعني ما اعطيتني ، اسألك فكاك رقبتي من النار » .

هذه هي امنية الابرار « النجاة من النار » ولا شيء سواها، فان حصلوا عليها ، ثم فقدوا كل شيء حتى الماء والهواء ، وحتى لو قطعوا ارباً ارباً فهم الراجون المنتصرون ، وان فقدوها ، ثم ملكوا الكون بما فيه من أرضه الى سمائه فهم الخاسرون المغبونون ، وهذا معنى قول الحسين (ع) في هذا الدعاء الذي نحن بصدده مخاطباً ربه : « ماذا وجد من فقدك ؟ ! وما الذي فقد من وجدك ؟! » . ولم تكن أقوال الحسين الا نبضاً من اعماق قلبه يتمرّس بها ويحياها ، ولو جرت عليه الكوارث والخطوب ، فلقد قال ، والسيوف تنهال عليه من كل جانب : « هون علي ما نزل بي انه بعين الله » . فالحسين يسر بالالم

والمصاب ما دام لله فيه رضى ، فالحكمة والصلاح والخير هو ما يختاره الله ، وان كان فيه ذهاب النفس والاهل والمال ، فان حصل شيء من هذا في سبيل الله ، او حصلت مجتمعة لم تضطرب النفس ، ويتزعزع الايمان ، لانها هي المطلب والهدف .

هذا مبلغ أهل البيت من الدين واليقين بالله ، وهذه منزلتهم من العلم به سبحانه ، والتوجه اليه بالفعل قبل القول ، وهذا هو التجرد عن الدنيا وغاياتها ، والغناء في جنب الله عز وجل ، والانجذاب اليه ، وهذا هو التجلي والاشراق والنور والكشف ، وبلوغ الكمال ، وماذا بقي لأهل التصوف بعد قول الحسين : « ماذا وجد من فقدك ؟ ! وما الذي فقد من وجدك ! » .

وقال : « الهي ان اختلاف تدبيرك ، وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون الى عطاء ، واليأس منك في بلاء » .

ليس للعارفين واهل اليقين اطوار وحالات ، ولا شخصيات تتحول وتتبدل تبعاً للظروف والملابسات ، فايمانهم بالله اقوى من ان تزعزه الحوادث ، وثقتهم به في السراء تماماً كثقتهم في الضراء ، لا يبطرون عند الصحة والغنى ، ولا ييأسون عند المرض والفقر ، لأن الحالين في طريق الزوال . قيل لبعض الحكماء : ما لنا لا نراك فرحاً ولا حزيناً ؟ . فقال : لان الغائب لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحيرة . وقال عز من قائل : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء — ١٧ الانعام » . وما

دام الامر الى مقادير الله سبحانه ترفع الوضيع ، وتغني الفقير ، وتفقر الغني ، وتمرض السليم ، وتشفي السقيم فعلام السكون الى العطاء ، واليأس في البلاء ؟ !

وقال : « الهي امرت بالرجوع الى الآثار ، فارجعني اليك بكسوة الانوار ، وهداية الاستبصار ، حتى ارجع اليك منها ، مصون السر عن النظر اليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، انك على كل شيء قدير » .

يقول : الهي انك خلقت الكائنات ، وهي تدل عليك من كبيرها الى صغيرها ، وامرتنا بالنظر فيما اودعته فيها من الحكمة وبدائع الصنع والتكوين ، لتحصل لنا المعرفة من طريقها بقدرتك وعظمتك ، ولكنا نسألك أن تهبنا نوراً واستبصاراً من عندك ، لنؤمن بك مباشرة دون أن نرجع الى الآثار من خلق السموات والارض ، حتى اذا رأيناها لم نزدد معرفة ويقيناً بك ، بل يكون رجوعنا اليها كخروجنا منها ، لانها لم تفتح لنا ابواباً جديدة للايمان بك بعد أن زودت قلوبنا بالنور والسكينة .

وهذا هو سبيل الصوفية الذي ينتهي بالانسان الى الايمان بالله عن طريق القلب لا عن طريق العقل واقيسته المنطقية .

الاتحاد والحلول



وقع بعض المستشرقين في اخطاء جوهرية ، وهم يكتبون عن التصوف في الاسلام ، وتبعهم من الكتاب من لا منطق له الا منطق الاجانب الاباعد .

بين الزهد والتصوف :

من تلك الاخطاء الخليط بين الزهد والتصوف ، واعتبارهما شيئاً واحداً، مع ان التصوف قد اخذ في مفهومه مجاهدة النفس وترويضها ، اما الزهد فهو مجرد الاعراض عن الدنيا ومتاعها بأي نحو من الانحاء، اجل ، ان الزهد ثمرة من ثمرات التصوف، وليس التصوف بالذات .

الاتحاد والحلول :

ومنها الخلط وعدم التمييز بين الاتحاد ووحدة الوجود مع ان مفاهيمها متغايرة متباينة، فالاتحاد هو ان تمحى من الانسان كل صفة من صفات الجسم، ويزول عنه كل ما هو غير روحاني، ومتى تم ذلك يتحد الانسان بالله، ويصير علمه علم الله، وقدرته

قدرة الله ، وعظمته عظمة الله، ونسب هذا الاتحاد الى ابي يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١ هـ .

اما الحلول فهو ان الله قد حل في الانسان وفي غيره من اجزاء هذا العالم ، ولكن هذا العالم المشاهد عدم زائل ، وشر محض ، فاذا تجرد الانسان عن كل اثر من آثاره ، وصفة من صفاته يذهب المحل ، وهو الجسم ، ويبقى الحال ، وهو الله ، وعليه يكون الفرق بين الاتحاد والحلول اعتباريا لا جوهريا ، إذ على كلا التقديرين يتصف الانسان بالصفات الالهية عندما يتجرد من المادة ، سوى ان هذه الصفات لا توجد في الانسان الا بعد التجرد بناء على الاتحاد ، وهي موجودة فيه قبل التجرد بناء على الحلول ، ولكنها محجوبة بصفات الجسم ، ومتى زالت هذه الصفات المادية ارتفع الحاجب، وتجلى الله في الانسان بكامل صفاته. ونسب القول بالحلول الى الحلاج الذي قتل سنة ٣٠٩ هـ.

وحدة الوجود :

اما وحدة الوجود فقد فسرت بتفاسير شتى ، ويمكن ارجاعها الى معنى واحد نستطيع فهمه وهضمه، وهو نفي التعدد في الوجود ، وعدم الفرق بين حقيقة الوجودات والموجودات ، وانه لا يوجد شيئان احدهما واجب كامل، وعلة موجودة للغير، وآخر ممكن ناقص يستمد وجوده من الغير ، وانما الوجود واحد ، وهو واجب الوجود ، والابدي الازلي ، والظاهر والباطن ، هو كل شيء ولا شيء سواه ، وعلى هذا تكون

وحدة الوجود في قبالة القول بتعدد الموجـود ، وتقسيمه الى الواجب بذاته ؛ والممكن بذاته ، ومهما يكن ، فان كل من الاتحاداوالحلول يستدعي الاثنينية والتعدد، ولا تعدد في وحدة الوجـود . ونسب القول بوحدة الوجود الى ابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ[١] .

ويتفق القول بوحدة الوجود مع المذهب المـادي القائل بان مرجع كل شيء الى المادة . وانها توصف بجميع صفات اللهمن الابديه والازلية والقدرة ، وان كل مـا توحيه قوانينها المعبر عنها بالقوانين الآلية الميكانيكية لا بد ان يتحقق ويكون، لأنه لا قوة قاهرة غالبة وراءها .

صدر المتـألهين :

اما الفيلسوف الشهير محمد بن أبراهيم المعروف بصدر المتألهين فقد نفي عن اهل العرفان والتصوف الحق القول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، واطال الكلام في تبرئتهم من هذه التهمة في الجزء الثاني من السفر الاول من كتاب « الاسفار » ، وقال فيما قال : حاشاهم من ذلك ، ومن نسب اليهم شيئاً منه فهو قاصر النظر والفهم .

وتتلخص اقواله بان اهل العرفان حين يقولون : ان الوجود

(١) برأه من هذه النسبة صدر المتألهين ، وعبر عنه في كتاب الاسفار بالشيخ العارف الموحد الرباني الصمداني و فهو في نظره موحد لله سبحانه لا للوجود بما هو وجود .

واحد ، فلا يريدون وحدة الوجود ، وما اليها مما يستدعي الكفر والجحود ، كيف ؟! وهم يقسمون الوجود الى واجب وممكن ، ولكن لما رأوا ان اصل الوجودات الممكنة واحد ، وهو واجب الوجود ، وان عللها مهما تعددت ، وتسلسلت فلا بد ان ترجع في النهاية اليه سبحانه ، وانها جميعاً فانية ولا يبقى الا وجهه الكريم قالوا: ان الوجود حقيقة انما هو للواحد الدائم، وارادوا بذلك ان جميع الممكنات تتفرع عنه وحده ، ومن المفيد ان ننقل شطراً من اقواله في هذا الصدد ، قال في صفحة ٣٠٠ :

« المعلول لا حقيقة له ولا معنى غير كونه اثراً وتابعاً من دون ذات تكون معروضة لهذا المعنى ، كما ان العلة المفيضة على الاطلاق انما كونها اصلا ومبدأ ومتبوعاً هو عين ذاته ، فاذا ثبت تناهي سلسلة الموجودات من العلل والمعلولات الى ذات بسيطة الحقيقة النورية الوجودية متقدماً عن شوب كثرة ونقصان ، وامكان وقصور وخفاء بريء الذات عن تعلق بامر زائد حال او محل، خارج او داخل ، وثبت انه بذاته فياض، وبحقيقته ساطع ، وبهويته منور للسموات والارض ، وبوجوده منشأ لعالم الخلق والامر تبين وتحقق ان لجميع الموجودات اصلًا واحداً هو الحقيقة والباقي شئونه ، وهو الذات ، وغيره واسماؤه ونعوته وهو الاصل ، وما سواه اطواره ، وشئونه ، وهو الموجود وما وراءه جهاته وحيثاته ، ولا يتوهمن احد من هذه العبارات أن نسبة الممكنات الى ذات القيوم تعالى نسبة الحلول،

هيهات ان الحالية والمحلية يقتضيان الاثنينية في الوجود بين الحال والمحل، وها هنا عند طلوع شمس التحقيق ظهر ان لا ثاني للوجود الواحد الاحد الحق ، واضمحلت الكثرة الوهمية » .

وقال في مقام آخر من كتاب« الاسفار » : «ان الصديقين من الصوفيه يفنون عـن رؤية انفسهم ، ولا يرون الا الله .. انهم يصلون الى مقام الوحدة من غير شبهة الاتحاد » اي انهم موحدون ، وليسوا من القائلين بوحدة الوجود .

وما ذهب اليه صاحب الاسفار من نفي الحلول والاتحاد عن عن كثير من الصوفية يتفق مع اصول الدين ومبـدأ الشريعة القائل : « الحدود تدرأ بالشبهات » فمهما امكن تأويل كلامهم وحمله على ما لا يتنافى مع الدين فهو المتبـع .

وذلك مثل قول الشبلي : « مـا رأيت شيئاً الا الله » حين سمع من قال : « ما رأيت شيئاً الا رأيت الله معه » ، وقول الجنيد : « والآن ليس مع الله شيء » حين سمع الحديث الشريف : « كان الله ، ولم يكن معه شيء » .

وقال صوفي : « حججت للمرة الاولى فرأيت الكعبة ، ولم ار رب الكعبة ، ولما حججت الثانية رأيت الكعبة ورب الكعبة ، ولما حججت الثالثة رأيت رب الكعبة ، ولم ار الكعبة » .

والاولى حجة الغافل الذاهل ، والثانية حجة المتأمل المفكر ، والثالثة حجة الفاني في الوجود .

الانسان



ما أعجب هـذا الانسان الذي يضع نفسه بنفسه موضوع البحث والتحقيق ! .. فيتكلم عن طبيعته وحقيقته ، وعن اصله ومآله ، واخلاقه وافعاله ، ونقصه وكماله ، ويصدر احكامه على ذاته بذاته ، كما يصدرها على أي كائن آخر . .

والآن تعال معي ايها الانسان ، لنستمع الى ما قيـــل عني وعنك .

أصل الانسان :

قالوا : ان هذا السيل المتدفق من افراد الانسان لم يتولد في الاصل من كائن يماثله ، بل تحول طبيعة الى طبيعة ، ومن شكل الى شكل ، حتى اصبح كما نراه الآن [1] .

---

(١) نقل المجلسي في الجزء الرابع من بحار الانوار المعروف بالسماء والعالم ان المسلمين والنصارى واليهود اتفقوا على أن ابا البشر هو آدم ، وقال الفلاسفة: لا أول للانواع المتوالدة . وقال غيرهم : ان الاجسام كانت على طبيعه واحدة ثم تعددت العناصر بواسطة الحرارة التي احدثتها الحركة ، وبعد ان تعددت العناصر واختلطت وتحركت وحصلت العفونة ، ومن العفونة تولد الانسان =

وليس لهذا القول مدركاً الا الحدس والظن ، فان مسكلة اصل الانسان ليست مجالاً للعقل والفكر ، ولا يرجع فيها الى العلم والتجربة ، انها مشكلة غيبية لا يحلها الا الدين ، ولا تعرف الا بالوحي . واذا حل العلم مشكلة المواصلات والغذاء والكساء، فليس معنى هذا انه على كل شيء قدير ، فهل يستطيع العلم ان يخبرنا عن كل ما حدث في الكون منذ وجوده ، حتى اليوم بحيث لا يشذ عنه كبيرة ولا صغيرة في الارض والسماء ؟ !

ان اصل الانسان محال ان يعرف بالعلم والعقل ، فطريق معرفته منحصر بالوحي لا بد أن يقع في الاوهام والاخطاء ، ويخبط خبط عشواء ، كما حدث لكل من تكلم عن اصل الانسان على غير اساس الدين والوحي . وقد جاء في القرآن الكريم الآية ٥٩ من آل عمران : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » . والآية ٣٧ من سورة الكهف : اكفرت بالذي خلقك من تراب » والآية ٥ من سورة الحج : « فانا خلقناكم من تراب » والآية ٢٠ من سورة الروم : « ومن آياته ان خلقكم من تراب » والآية ١٣ من سورة الحجرات : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى » الى

= كما يتولد الدود في الفاكهة واللحم ! .. اذن هذا الزعم قديم ، وليس حادثاً جديداً ، كما يظن . . لقد افرط هؤلاء دون ان يعتمدوا على دليل . وغالى المؤمنون بآدم ، حيث نسبوا اليه كتابين احدهما اسمه « سر الخفايا » والثاني اسمه « الملكوت » ، وموضوعها في علم الحروف ! ...

غير ذلك من الآيات ، وجاء في الحديث الشريف : « كلكم من آدم ، وآدم من تراب » .

تعريف الانسان :

لقد عرف الانسان نفسه بتعاريف شتى لا يشملها قاسم مشترك ، منها انه حيوان ناطق ، او ضاحك ، او الهي ، او مدني بالطبع ، او فيه انطوى العالم الاكبر ، او افضل من الملائكة ، او اخبث من الشيطان ، وقال سارتر زعيم الوجوديين : ان وجود الانسان عبث زائد عن الحاجة . وقال آخر : انه الكائن الذي يستطيع ان يكذب . وقالت الملائكة : انه يفسد في الارض ، ويسفك الدماء ، كما صرحت الآية ٣٩ من سورة البقرة .

وقال بعض الصوفية : ان الانسان خليفة الله في ارضه صورة ومعنى ، اما صورة فلان وجود الانسان يدل على وجود الباري ، كالبناء يدل على وجود الباني ، واما معنى فلان وحدانية الانسان تختلف عن وحدانية الله ، وذاته عن ذاته ، وارادته عن ارادته ، وسمعه عن سمعه ، وبصره عن بصره ، وكلامه عن كلامه ، وعلمه عن علمه ، وليس لاحد من المخلوقات ان يخلف عن الله في شيء غير الانسان .

ثم قال هذا الصوفي : اما قول الملائكة بأن الانسان يفسد في الارض فلانهم نظروا اليه من جانب الشر الذي فيه ، ولم

ينظروا الى جانب الخير الذي اشار الله اليه بقوله : « اني اعلم ما لا تعلمون »[1] .

وجاء في المجلد الرابع عشر من كتاب بحار الانوار للمجلسي ان المخلوقات تنقسم الى اربعة اقسام :

(١) فيه القوة العقلية دون الشهوانية ، وهم الملائكة .
(٢) فيه القوة الشهوانية دون العقلية ، وهو الحيوان .
(٣) ليس فيه ثمة شيء منهما وهو الجماد والنبات .
(٤) فيه الامران ، وهو الانسان .

وعلى هذا فالملائكة حين وصفوا الانسان بالفساد نظروا الى القوة الحيوانية ، واهملوا القوة العقلية الانسانية .

ومن المفيد ان نذكر ما جاء في كتاب « مصباح الانس » لابن حمزة في شرح « مفتاح الغيب » للقونوي ، قال في ص ٣١٥ :

ان في الانسان خاصية المعادن ، وهي الكون والفساد ، وخاصية النبات ، وهي النمو والغذاء ، وخاصية الحيوان ، وهي الحس والحركة ، وخاصية الانسان ، وهي الفكر والادراك ، وخاصية الملائكة ، وهي الطاعة والحياة .

فالانسان يتملق كالكلب والهر ، ويحتال كالعنكبوت ، ويتسلح كالقنفذ ، ويهرب كالطير ، ويتحصن كالحشرات ،

---

(١) روح البيان للشيخ اسماعيل حقي ج ١ ص ٩٦ .

ويعدو كالغزال ، ويبطيء كالدب ، ويسرق كالفأر[1] ، ويفتخر كالطاووس ، ويحقد كالجمل ، ويتحمل كالبقر ، ويشمس كالبغل ، ويغرد كالطير ، ويحرص كالخنزير ، ويصبر كالحمار ، وينفع كالنحل ، ويضر كالعقرب ، وهو شجاع كالاسد ، وجبان كالارنب ، وانيس كالحمام ، وخبيث كالثعلب ، وسليم كالحمل ، وابكم كالحوت ، وشؤم كالبوم .

ومرة ثانية نقول : ان معرفة اصل الانسان لا ترتبط بالحس ومشاهداته ، ولا بالعلم وتجربته ، ولا بالعقل ومناقشته ، ولا بفطرة الانسان وبديهته ، وانما ترتبط بالدين والوحي لا غير ، اما معرفة حقيقة الانسان كما هي ، ومن جميع جهاتها فمحال ، وانما نعرف بعض صفاته بالقياس الى ما يصدر عنه من افعال وآثار .

أما الاقوال المتضاربة في تعريف الانسان فان دلت على شيء فانما تدل على أن في طبيعته اسرار المنجيات والمهلكات بكاملها ، وان الاحاطة بها فوق المستطاع ، وعلى هذا يسوغ لنا أن نقول في تعريف الانسان : انه الذي يحاول أن يعرف نفسه على حقيقتها ، ولكن على غير جدوى .

وقال الامام علي : ان الانسان في بعض حالاته يشارك

---

(١) نقل ان نفس الحلاج كانت تعدو خلفه على صورة الفأر تارة ، وعلى صورة الثعلب اخرى ، وعلى صورة الكلب حيناً ، وان محمد بن عليان الصوفي خرجت نفسه من حلقه على هيئة ثعلب صغير .

السبع الشداد ، اي الكون بكامله ، فكما ان الحياة تتوقف على هذا الكون كذلك تتوقف على الانسان نفسه .

وقال ابو يزيد البسطامي : طلبت ذاتي في الكونين فما وجدتها ، أي أن ذاته فوق عالم الطبيعة ، وعالم المثال [1] .

(١) الاسفار للملا صدرا ، الجزء الاول من السفر الرابع ص ٣١٠ طبعة ١٣٧٨ ه .

الشيطان وقلب الانسان



مهما اختلف الصوفية فيما بينهم فانهم متفقون كلمة واحدة على ان التصوف يبتدىء من التغلب على ميول النفس واهوائها . وليس هذا التغلب بالامر اليسير ، فقد استسلم وخضع للاهواء في ذلة وصغار الالوف من العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، وقضوا حياتهم ، وليس لهم مع امر الهوى امر ، ولا مع حوله وقوته حول ولا قوة ، ولكن اذا نشبت الشهوة اظفارها بالملايين ، فليس معنى ذلك انها هي التي تحدد مصير الناس باجمعهم ، وان الانسان لا بد ان يقع اسيراً لها كائناً من كان ، والا لم يكن للحرية والاختيار مكان ، ولا للخير والشر معنى ، ولا للقوانين والشرائع مبرر ، حيث لا تبعة ولا مسؤولية .

ان الانسان ، اي انسان ، مسئول عن عمله مهما تكن الظروف والملابسات ، ما دام قادراً على ان يقف من البواعث والمغريات موقفاً سلبياً ، وماذا لدى المغريات غير الدعوة والتحسين ؟! وهل تملك المومس الا التبرج ؟! وليس من شك

في ان الموقف معها دقيق وحرج ، ولكنه المحك لقوة الارادة، وتمييز الرجال من اشباه الرجال .

وفي هذا الموقف الحاد العسير يأتي دور المتصوف ، وجهاده مع النفس الامارة وميولها ، وكما ان البطل هو الذي يصرع الخصم عند النزال كذلك الصوفي هو الذي يتغلب على ميول النفس ونزعاتها ، ولا يستجيب لاهوائها وشهواتها ، بل تكون اسيرة له يأمرها فتطيع ، ولا يكون اسيراً لها تأمره فيطيع ، فهذا التصوف لا يعني شيئاً غير الصبر وقوة الارادة والاجتهاد في مقاومة النفس اذا ارادت الانحراف والغواية ، قال احد المؤلفين :

« ان الشيطان يقرع على باب قلبك ، ولكن ثق انه لم يقو من تلقاء نفسه على فتح الباب ، لأنه رجل مهذب لا يقترف جريمة هتك حرمة مسكنك، بل يكتفي بطلب الاذن بالدخول، فلا تأذن له ، واياك ان توارب الباب ، حتى ولا لترى من الطارق ؟ ان من يفتح الباب فقد هلك .. ان دقيقة واحدة مع الشيطان كافية لأن توردك مورد التهلكة » .

وهذا صحيح نطق به القرآن الكريم حكاية عن الشيطان . الآية ٢٢ من سورة ابراهيم : « وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتموني من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم » فليس لابليس او الشهوات او

الارادة الشريرة او المغريات الخارجية مهما شئت فعبر ، ليس لها الا الدعوة، وما عليك الا الرفض اذا اردت ان تكون انساناً كريماً ، وهذا ما اراده الامام علي (ع) من قوله : « اعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد » .

دعانا الامام ان نصبر ، ونعف ونكف اذا اعترضت سبيلنا المغريات ، دعانا ان نقاوم ونجاهد ، ولا نستسلم للخطيئة ، لأن من استسلم لها فقد تنازل عن شخصيته ، ومحا نفسه من الوجود، وتركها للاهواء تفعل به ما تشاء ، لا ارادة له ولا ادراك، ولا شيء ابداً ، فهو اذ ينكر وجود الله والفضائل ، ويحلل ويحرم فانما ينطق بلسان الدنيا والشيطان ، لا بلسان العقل والايمان ، قال الامام مخاطباً الدنيا ، « فوالله لا اذل لك فتستذليني، ولا اسلس لك فتقوديني » .

وقال حفيده الامام جعفر الصادق :

« الدنيا بمنزلة صورة ، رأسها الكبر ، وعينها الحرص ،واذنها الطمع ، ولسانها الرياء ، ويدها الشهوة ، ورجلها العجب ، وقلبها الغفلة ، وكونها الفناء ، وحاصلها الزوال ، فمن احبها اورثته الكبر ، ومن استحسنها اورثته الحرص ، ومن طلبها اوردته الى الطمع ، ومن مدحها اكسبته الرياء ، ومن ارادها مكنته من العجب ، ومن اطمأن اليها اركبته الغفلة ، ومن اعجبه متاعها فتنته فيما لا يبقى، ومن جمعها وبخل بها ردته الى مستقرها، وهو النار » .

فالكبر والحرص والطمع والرياء والشهوة والعجب والغفلة،

كل هذه وما اليها من المساوي تأتي كنتيجة طبيعية لحب الدنيا والميل مع الهوى ، وكل واحدة منها تدع الانسان في ظلمات تعميه عن رؤية الله ومعرفة الحقيقة ، فكيف اذا تعاونت عليه مجتمعة ؟!

اما اذا انصرف عن الموبقات ، وروض نفسه رياضة تجعل هواه ورضاه في طاعه الله وحده ، حتى ولو كان فيها البلاء والضراء ، فانه ، والحال هذه ، يسير تلقائياً مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وينزع بطبعه الى الايمان بالواحد الاحد ، ولا يحتاج الى اقيسة الفلاسفة واستدلالاتهم المنطقية ، ونقاشهم وحوارهم ، فهذا الايمان يستند الى القلب وحده ، على شريطة ان يكون طاهراً نقياً من كل شائبة .

وعلى هذا السبيل نستطيع القول بان ما من احد انكر وجود الله الا لأنه أسير الاهواء والشهوات ، قال الامام الصادق : « ابعد ما يكون العبد من الله عز وجل اذا لم يهمه الا بطنه وفرجه » . ولذا ينتشر الالحاد ، حيث ينتشر الفساد ، وهذا ما اراده الصوفية من الكشف ، اي ان الايمان بالله يحصل في القلب الزكي تلقائياً بدون دراسة وبرهنة ، لأن هذه لا تثمر غير الشك والارتياب اذا لم يكن القلب صافياً نقياً .

ولا شيء ادل على ذلك من اننا نجد في كل عصر افراداً يؤمنون بالله بفطرتهم ، فقد حدثنا التاريخ عن حنفاء في الجاهلية تركوا قومهم يعبدون الاصنام ، وعكفوا على عبادة الرحمن . ومهما شككت فاني على يقين بان طهارة القلب ، والخوف من الله

سبحانه بترك المحرمات والموبقات ، وطـــاعته بفعل الواجبات والعبادات ، والاخلاص له في جميـع الاقوال والاعمال يكون سبباً كافياً وافياً لمعرفة الله عز وجل، وللحكمة ايضاً ولا اريد بالحكمة الحكمة النظرية، والعلوم الطبيعية، وانما اردت الحكمة التي وصف الله بها الانبياء واهل الخير والمعرفـة ، واشار اليها بقوله : « ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً » ، اردت الحكمة التي جاءت على لسان الامـام علي بن طالب ، ولسان لقمان الحكيم ، وهي التي تقربنا من الخير والهداية ، وتبتعد بنا عن الشر والضلالة ، وقد جـاء في الحديث الشريف ، « رأس الحكمة مخافة الله » اي ان الخوف مصدر الحكمة ، وقـــال الامام الصادق : « الحكمة ميزان التقوى ، وثمرة الصدق » .

المستشرقون والتصوف



كان المستشرقون ، وما زالوا الرائد الناصح للاستعمار – الا قليلا منهم – ولم تكن بحوثهم في الاسلام وتاريخ العرب والمسلمين وتراثهم الا للتحريف والتزييف ، والا للدس واحداث الثغرات في الصفوف ، وما تكلموا عن شيء يتصل بالاسلام والمسلمين الا بهذا القصد ، أما العلم والتماس الحقيقة الذي تذرعوا به فكذب وخداع واحتيال ، وفي كتاب « الشيعة والحاكمون » قدمت ارقاماً على هذه الحقيقة ، والآن وبمناسبة الكلام عن التصوف اذكر امثلة من اراء بعضهم في التصوف الاسلامي ، كشاهد على العداء والكيد للاسلام وبني الاسلام .

قال المستشرق نيكلسون في كتاب « الصوفية في الاسلام » تعريب نور الدين شريبة ص ٩٠ طبعة ١٩٥١ :

« المتصوفون قد ادوا دون ريب عملًا جليلا للاسلام ، فهم بنبذهم قشور الدين ، واصرارهم على تحصيل لبابه بتنمية المشاعر الروحية ، وتطهير البواطن ، لا بالعمل الظاهري قد مكنوا ملايين الناس من حياة غنية عميقة » .

والقشور في نظر هذا المستشرق هي الصلاة ، وبناء المساجد، والتفرقة بين الكفر والاسلام ، قال في ص ٨٨ : « والصوفي الكبير ابو سعيد بن ابي الخير حين يتحدث بلسان القلندرية يعبر عن قواعدهم في تحطيم هذه الاوثان في شجاعة تأخذ بالالباب حين يقول : لن نؤدي ما فرض علينا من واجب مقدس ما لم نذر كل مسجد تشرق عليه الشمس حطاماً ، ولن يظهر المسلم حق المسلم ما لم يصر عنده الايمان والكفر واحداً » .

لقد روج نيكلسون لهذه الفكرة ، ونعتها بالشجاعة لا لشيء الا لأنها جرأة على الله والرسول ، ان معنى هدم المساجد ومساواة الكفر والاسلام انكار صريح للقرآن ، والسنة النبوية ، والشريعة الاسلامية ، وهذي هي امنيته وامنية امثاله من المستشرقين ..

وقال في ص ٦ : « القارئون للقرآن من الاوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطرب مؤلفه ، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات ، وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات » .

فالقرآن بزعمه ألفه محمد ﷺ ، وهو مضطرب يناقض بعضه بعضاً ، ولم يدرك محمد نفسه هذا التضارب والتناقض ..

هذا هو الاستشراق عند اكثر المستشرقين دس وتشويه وتهجم على الاسلام ومقدساته .. قال طه عبد الباقي سرور في كتاب « شخصيات صوفية » ص ٥٤ — ٥٦ : « لبعض المستشرقين غرام خاص بالشك ، ولبعضهم ولع ملح بالتجريح

الخفي للتراث الاسلامي ، والثقافة المحمدية ، فجـاءت دراستهم للتصوف الاسلامي مطبوعة بطابـع الشك ، موسومة بالتجريـح ، مرقومة بالهوى.. وكان اقرب رجال الاستشراق الى الانصاف هو المستشرق العالم نيكلسون » .

واذا كان نيكلسون الذي نقلنا طرفاً من اقواله هو اقرب المستشرقين الى الانصاف فكيف بغيره ؟ !

وبالتالي ، فعلينا نحن العرب والمسـلمين ، وعلى كل باحث ينشد الحقيقـة ان يربط بين اقوال هؤلاء المستشرقين ، وبـين الاستعمار ، وينظر اليها كوسيلة من وسائله ، واداة من ادواته علينا أن ننظر الى ما يكتبون وينشرون بيقظة وحـذر ، ولا نخدع بشيء مما يضفونه على بحوثهم من ألوان التحقيق والتدقيق، فانها ستار للدسائس والمؤامرات .

كرامات الاولياء



بين المحال والتعجب :

فرق بعيد بين ما يحيله العقل ، ويجزم بعدم وقوعه ، وبين الذي يتعجب منه بعد وقوعه ـ مثلاً ـ اذا قال لك قائل: الاسود ابيض، والموجود معدوم، والواحد اكثر من الاثنين، والعشرة اقل من الواحد ، فان عقلك يرفض هذا بمجرد سماعه ، وبدون توقف ، لأنه محال في نفسه، ممتنع في ذاته ، اما اذا سمعت رجلا يخبر بالمغيبات ، او يقرأ الافكار على واقعها فانك لا تنكر عليه ولكنك تتعجب منه ، لأنه اتى بغير المعتاد والمألوف .

القرآن والمعجزات :

لقد اكبر القرآن العقل ، واجله اي اجلال، واعتبره اساساً للتفكير بخلق الانسان ، والسموات والارض ، ودليلًا للايمان بالله وكتبه ورسله ، وفي الوقت نفسه ذكر للانبياء معجزات خارقة للعادة ، كقصة العزيز الذي احياه الله بعد ان اماته مئة عام، وابقى طعامه على ما كان لم تغيره السنون، وحكاية ابراهيم

الخليل مع الطيور الاربعة ، وكيف اتت اليه سعياً بعد ان قطعهن وفرق اجزاءهن على الجبال ، وكعصا موسى التي انقلبت حية تسعى ، كابراء عيسى الاكمه والابرص والاعمى ، واحيائه الموتى ، وكمحاربة الملائكة مع الرسول الاعظم خاتم النبيين ، ورميه الحصى والتراب في وجوه المشركين، حيث كانت الرمية سبباً لهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم . وذكر القرآن ايضاً كرامات للاولياء ، كحمل السيدة مريم بلا دنس ، وقصة اهل الكهف ، وقصة آصف بن برخيا مع سليمان في عرش بلقيس ، وقوله : انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك ، وما الى هذه من خوارق العادات التي جاء ذكرها في الكتب السماوية ، ولو كانت محالا لم يخبر القرآن عن وقوعها ، ولم تتقبلها عقول الملايين عبر القرون والاجيال .

بل ان القرآن قد اثبت السحر : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرق بين المرء وزوجه وما هم بضائرين من احد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم - ١٠٢ البقرة » .

الكرامات :

وعلى هذا فان حصول الكرامات على ايدي الاولياء امر ممكن يقره الدين ولا يأباه العقل ، وقد فرّق علماء الكلام بين

المعجزة والكرامة بان الاولى يشترط فيها التحدي، كأن يقول النبي لمن بعث اليهم : ان لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا ، اما الثانية ، وهي الكرامة فلا يشترط فيها التحدي .

اعتراض :

وقد يعترض البعض بان الحوادث المحسوسة لا بد ان تخضع لأسباب مادية ، وعلل طبيعية ، ومعجزات الانبياء وكرامات الاولياء تتنافى مع قانون الطبيعة ومبدأ العلية القائل: ان لكل حادثة سبباً ، واذا انتقص هـذا المبدأ فلا يمكن الاعتماد على اية نظرية فلسفية ، وقانون علمي ، لأن كلا من الفلسفـة والعلوم يرتكز على نظام العلة والمعلول الطبيعيين ، وبالتالي يثبت القول بالاتفاق والصدفة التي ابطلها العلم ورفضها العقل ، وعليه يكون القول بالمعجزات والكرامات باطل من الاساس .

الجواب :

ان القول بالصدفة باطل من غير شك، ومبدأ العلية والسببية حق لا ريب فيه، ولا يمكن نقضه في حال من الحالات ، ولكن الحوادث الطبيعية لا يجب ان تكون عللها واسبابها ابداً ودائماً طبيعية، كيف وعلة الطبيعة بمجموعها قوة تكمن وراء الطبيعة، وقدرة تتصرف فيها كيف تشاء متى تشاء ؟! وارادة الله سبحانه قد تعلقت بالمعجزة والكرامة ابتداء وبلا توسط سبب طبيعي ، وبهذا كانت خارقة للمعتاد.

وقد جاء في الكتاب العزيز : « انما امره اذا اراد شيئاً ان

يقول له كن فيكون – ٨٢ يس ، واذا اسألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني – ١٨٦ البقرة » . واستجابة الدعاء قد تكون بتهيئة الاسباب العادية، وقد تكون لمجرد الارادة القدسية بحيث يكون السبب الاول والاخير هو ارادة الله وحدها ، وجاء في الحديث الشريف : « ان لله عباداً متى ارادوا اراد » .

وقد شاهدنا افراد اصيبوا بداء اجمع الاطباء الاخصائيون على انه مميت لا علاج له ، ثم برأوا فجأة بدون تطبيب ، وسمعنا عمن اصيب بضربات قاتلة ، ومع ذلك بقي سالماً معافاً ، ولا سبب الا مشيئة الله ، فكما يوجد الله الاشياء باسبابها الطبيعية فانه قد يوجد شيئاً لمجرد الارادة ، وبدون سبب ظاهر لحكمة يعلمها هو ، ونجهلها نحن ، وحتى السبب الطبيعي لا يؤثر اثره الا بارادته تعالى ، فالنار سبب للاحراق ، والسقوط من شاهق سبب للهلاك ، ولكن بشرط ان لا يريد الله عكس ذلك ، وبتعبير ثاني ان الاسباب الطبيعية تقتضي التأثير اذا ارادها الله كذلك ، فاذا انتفت ارادته انتفى التأثير قهراً .

وبالتالي، فان كل من يعترف بوجود قوة مدبرة وراء الطبيعة يلزمه حتما ان يعترف بالمعجزات والكرامات ، لان من اوجد الطبيعة بكاملها بدون سبب طبيعي فاولى ان يوجد بعض اشيائها كذلك ، اما من ينكر الخالق الحكيم فلا كلام لنا معه ـ هنا ـ ونحيله على كتابنا « الله والعقل » .

وبعد هذا التمهيد نعرض حزمة من الكرامات التي نسبت الى الصالحين وشيوخ الصوفية ، نعرضها، ونحن على علم اليقين بان بعضها نسب الى رجال لا عهد لهم بها ولا علم ، وبعضها الآخر انتحله مدلسون للتمويه على البسطاء والبلهاء .

السيد البدوي :

جاء في « حاشية الشيخ الباجوري على شرح الغزي على متن ابي شجاع » باب تغسيل الجنائز : « ان الميت لو غسل نفسه لا يحتاج الى من يغسله ثانية ، كما وقع ذلك للسيد احمد البدوى ، » اي ان السيد البدوي بعد ان مات قام فغسل نفسه ، وبعد انتهائه من الغسل مات ثانية ، وهذا النوع من الكرامة لم يتفق لاحد ، حتى للسيد المسيح ، لان السيد المسيح كان حياً حين احيا الموتى ، اما السيد البدوي فقد احيا نفسه وهو ميت ».

البطائحي :

في الجزء الاول من « لواقح الانوار في طبقات الاخيار » للشعراني ص ١٣٢ : « ان ابا بكر البطائحي كان نائماً فرأى في نومه ان ابا بكر الصديق البسه ثوبا وطاقية ، فاستيقظ فوجدهما عليه.. ونقل صاحب الكتاب المذكور ان البطائحي هذا مات، وان جسمه استحال الى تراب ، وان ترابه استحال الى نبات ، وان الحيوان الذي اكل من هذا النبات لم تؤثر به النار ، ولم ينضج ابداً » .

وليس من شك ان كل من قرأ هـذا لا بد ان يتساءل :

كيف تميز تراب البطائحي عن تراب غـــيره ؟! وعلى افتراض حصول هذا التميز وامكانه كيف تميزت نبتة ترابه عن غيرهـا من النباتات ؟! وفي حالة امكان هذه التميز ووقوعه كيف تميز الحيوان الذي اكل هذه النبتة عن غيره ؟!

الجيـلاني :

وفي الكتاب السابق الذكر ص ١٢٦ ان عبد القادر الجيلاني كان وهو طفل رضيـع يمسك عن الرضاع في نهار رمضان لانه صائم ، وصادف ان غم الهلال على الناس في آخر الشهر، فسألوا ام عبد القـادر : هل رضع اليوم ؟ فقالت : نعم . فعلموا انه العيد .. ومن كراماته انه بقي سنة يأكل ولا يشرب ، وسنة يشرب ولا يأكل، وسنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام.. واذا اقتضت حكمة الله خلاص انسان ونجاته من التهلكة على الرغم من وجود اسبابها ، فأية حكمة في بقاء عبد القـادر سنة كاملة بلا اكل ولا شراب ولا نوم ؟!

قضيب البـان :

قال الشيخ يوسف النبهاني في كتاب « جامع الكرامات » ج ١ ص ٣٦٠ : « ان رجل دخل على الشيخ قضيب البان في بيته فرأى جسده يملأ البيت بكامله ، فهاله ما رأى من هذا النمو الخارق ، فخرج الرجل ثم عاد ، فرآه قـــد صغر حتى اصبح كالعصفور ، فخرج ثم عاد ، فرآه كعادته ..

وقال عبدالله اليافعي في كتاب « نشر المحاسن الغالية في فضل

الصوفية اصحاب المقامات العالية» : لقد اشتهر عن الصوفية انهم يقلبون الحصى جوهراً ، والحطب ذهباً ، ونشارة الخشب دقيقاً ، والرمل سكراً ، وماء البحر سمناً ، ونقل ان صوفياً مات في سفينة فجف ماء البحر ، حتى لم يبق منه قطرة ، فنزل الركاب من السفينة ، وحفروا للصوفي ودفنوه ، فلما فرغوا من دفنه استوى الماء ، وارتفعت السفينة ، فركبوا وساروا ..

وقد وضع القدامى العديد من المجلدات الضخمة في امثال هذه «الكرامات» واكثرها مطبوع ، وكان انتشار هذه «الكرامات» عاملا قوياً في القضاء على التصوف والمتصوفين ، فلقد كان لهم مكانة في القلوب ، ووجاهة عند الناس ، ثم انتكسوا وضعف امرهم ، حيث انتسب اليهم الادعياء الذين تجاوزوا كل حد في الكذب والتدليس ، فبعد ان كانت الكرامات معقولة مقبولة ، كاستجابة الدعاء في شفاء مريض ، والنجاة من بعض المخاطر ، وما الى ذاك مما يتفق للصالحين وغيرهم من ذوي النوايا الحسنة ، اصبحت من النوع الذي ينفر منه السمع ، ويأباه الطبع .

ومن الاسباب التي عجلت بانقراض الصوفية انغماس المنتمين اليهم في المحرمات والشهوات ، وظهور امثال القلندرية ، حتى لم يبق معنى للتصوف عند هؤلاء ومن اليهم الا التكدي واستعمال البنج والافيون[1]

---

(١) انظر الجزء الخامس من كتاب « الميزان في تفسير القرآن » للسيد محمد حسين الطباطبائي ص ٣٠٤ والجزء السادس ص ٢٠٤ .

مصدر المعرفة وحقيقة الكشف عند الغزالي *



كانت ابرز ظاهرة في كلام المحاضرين والمعلقين هي فكرة التصوف بعامة ، وتصوف الغزالي بخاصة ، وليس ذلك بعجيب ولا بغريب ، فلقد كان للتصوف اثره البالغ في الفلسفة والاخلاق والآداب عند العرب والمسلمين ، كما كان الهدف الاول لبحوث الغزالي ومحور اهتمامه ، وبه عرف واشتهر ، وتبوأ المكان الاسمى ، وبسببه اقيم هذا المهرجان شعرنا بذلك ام لم نشعر .

وبما ان بعض الزملاء قد نفى فكرة التصوف عن الاسلام والبعض الآخر اثبتها كان لزاماً علي بصفتي الدينية ان ابين ما هو الحق ، مستنداً الى كتاب الله ، وسنة نبيه ، لا الى قول امام ، او قياس .

ان لفظ التصوف بالذات لم يرد في الكتاب ولا في السنة ، فما من آية او رواية نصت على أن التصوف خير محبوب ، او شر مكروه ، ولكن الله ورسوله قد أمرا بالتقوى والصدق

* تليت في مهرجان الغزالي الذي اشرنا اليه في المقدمة .

والاخلاص ، ونهيا عن النفاق والرياء والخيانة . اذن ، فكل ما ينطبق عليه الصدق والاخلاص فهو من الاسلام في الصميم ، وكل ما ينطبق عليه الرياء والنفاق فليس من الاسلام في شيء . وبهذا المقياس وحده يجب ان نقيس التصوف وكل موضوع حديث من الوجهة الدينية .

وبما أن تصوف الغزالي وامثاله هو التقوى والحب والاخلاص وللانسانية كان حقاً وهداية ، أما تصوف المرائين والمنافقين فبدعة وضلالة . وبهذا نوفق بين اقوال الطرفين المتنازعين ، فمن اثبت فكرة التصوف في الاسلام نظر الى المتصوفين المخلصين ، ومن نفاها عن الاسلام نظر الى تصوف الدجالين والانتهازيين ، فالنزاع اذن ناشيء عن سوء التفاهم ، والاشتباه في القصد والمرام .

ولما كان في ربط المعرفة بالتصوف الكثير من العمق والدقة والغموض فقد ركزت كلمتي هذه على امكانه في ذاته بصرف النظر عن التفاصيل ، واوردت الادلة على ان الكشف الصوفي او الحدس ، او الذوق مهما شئت فعبر ليس محالا ولا ممتنعاً ، اما وجوده وتحققه في الخارج فاترك اثباته لغيري .

موضوع النقاش :

لقد دارت مناقشات حادة بين الفلاسفة القدامى والجدد حول مصادر المعرفة الانسانية وأسبابها ، أما الهدف من تلك المناقشات فهو تحديد الموازين والمقاييس التي يعرف بها خطأ

الفكر البشري من صوابه ، والحقائق من الاوهام ، ولا يمكن القيام بأية دراسة الا في ضوء مبدأ يعتبر المقياس الصحيح للقضايا التي تكون محلا للاختلاف والأخذ والرد مهما كان نوعها ولونها.

والآن ، ما هي مصادر المعرفة عند ابي حامد ؟ ما هو المقياس الصحيح الواضح عنده لمعرفة الفكر الصائب ؟ وهل وجهة نظره في ذلك تختلف عن وجهات انظار الفلاسفه والمتكلمين ؟

لقد شك الغزالي في اشياء كثيرة ، ولكن لم يكن شكه ناشئاً عن شذوذ في طبعه ، ولا عن اضطراب في اعصابه ، كما زعم البعض ، وانما السبب الاول والأخير تمرده على المجتمع وتقاليده ، وبهذا كان اشبه بالحنفاء الذين تركوا قومهم يعبدون الاصنام ، وعكفوا على عبادة الواحد الاحد . اما الامور التي شك فيها ابو حامد فهي آراء الفلاسفة ، وطريقة المتكلمين والصوفية ، ومعتقدات أهل الباطن ، فقد رآهم يعتمدون فيما يعتمدون على الحواس والعقل ، فهما الشاهدان العدلان عندهم ، ولكن الغزالي رأى أن احد الشاهدين يكذب صاحبه ، فالعين ترى الكوكب بمقدار الدينار ، والعقل يراه اكبر من الارض ، واذا كذبت الحواس فبالاحرى أن يكذب العقل ، وعليه فلا يمكن الاعتماد على واحد منهما ، وبالتالي يتم مذهب السفسطة ، ويصدق قول السفسطائيين من انه لا يوجد دليل على شيء يركن اليه .

ولكن السفسطة كاسمها ليس لها من واقع ، فمحال ان تمر

على الامام ابي حامد بسلام ، وما كان الله ليدعها تفسد ما استصلحه بوحيه ورسله فقذف النور في قلب عبده المخلص ، وبصره بالحق بعد الغشوة ، وناجاه في عقله ، فاستصبح بنور اليقظة في بصره وبصيرته ، فرأى أن البصر وما اليه من الحواس الظاهرة تصدق فيما لا يكذبها به العقل ، كما لو رأت العين الجبال والاشجار ، وتكذب فيما يكذبها به كرؤيتها الكوكب بمقدار الدينار ، وان العقل يصدق فيما لا يكذبه الوحي ، كحكمه بأن النفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، ويكذب فيما يكذبه به الوحي ، كحكمه بأن العالم قديم وان الله يعلم الكليات ، ولا يعلم الجزئيات مباشرة ، بل بالواسطة ، لانه يعلم ذاته التي هي سبب الاسباب ، وان الاجسام لا تحشر كما زعم الفلاسفة .

وبهذا حدد الغزالي اسباب المعرفة كلا في دائرة اختصاصه ، فالحواس مصدر المعرفة ، ولكن في موارد دون اخرى ، ولو اعتمدناها في جميع الموارد لوجب ان نرفض كل فكرة لا يدرك واقعها بأحد الحواس ، وهذا تقويض للكيان العلمي من الاساس ، وكذا العقل فهو مصدر المعرفة في بعض الموارد دون بعض ، ولو اتخذناه مصدراً في كل مورد لاهملنا الكثير من حقائق الوحي والدين ، وعلى هذه السبيل خطأ الغزالي الفلاسفة ، لانهم اعتمدوا العقل في كل شيء ، ورد على المتكلمين ، لانهم قلدوا خصومهم الفلاسفة في كثير من المسائل ، ونعى على بعض الفرق الصوفية ، لانهم غابوا عن حواسهم وعقولهم ،

وزعموا انهم يشاهدون في احوالهم الخاصة اشياء تناقض المحسوسات والمعقولات في امور لا يكذب فيها العقل والحس .

اذن الغزالي لا يسقط العقل عن الاعتبار والدلالة على الحق ، كيف وهو يؤمن بالوحي اكثر من ايمانه بنفسه ، وقد بالغ الوحي في قدرة العقل على الهداية والرشاد ، واعتبره المناصر الاكبر لاحكامه وتعاليمه ، وانما ينكر الغزالي أن يكون العقل هو السبيل المطلق الى جميع الحقائق ، حتى حقائق الوحي ودقائقه . وبهذا نعلم مكان الخطأ فيما جاء في الكتب الحديثة من أن الغزالي ناقض نفسه بنفسه ، حيث اعتمد منطق العقل في رده على الباطنية وغيرهم ، بينما نعى على الفلاسفة نهج العقل . كلا ، لا تناقض ولا تهافت ، فلقد رد الغزالي على الفلاسفة ، حيث اعتمدوا العقل فيما لا يخصه ولا يعنيه من معضلات الوحي ، ورد على الباطنية بالعقل فيما هو من شؤونه ومنطقه .

أهم اسباب المعرفة :

ان اهم اسباب المعرفة بعد الوحي عند الغزالي هو الكشف ومن اجله اخترت هذا البحث ، وما اشرت اليه من الحواس والعقل انما هو للتوطئة والتمهيد ، وقد استعصى معنى الكشف الذي اعتبره الغزالي مفتاحاً لاكثر المعارف ، استعصى على افهام الكثير ، لان الناس انما تدرك وتتفهم الشيء المألوف لديهم ، وما يحسونه في أنفسهم ، ويرونه عيانا في غيرهم ، أما ما لا عهد لهم بمثله فهم في ريب من وجوده ، ومرية من لقائه .

وقد دارت حول الغزالي معارك وآراء متضاربة من اجل هذا الكشف ، فمنهم من عده من اهل البدع والضلالات ، وبعض المعاصرين له وضع رسالة في تكفيره ، والاكثر الاغلب اعتبروه اماماً في العلم والتحقيق والتدقيق ، وحجة الاسلام على المسلمين في الاخلاق وامور الدين ، بل ان هذا الوصف ، وهو حجة الاسلام قد صار علماً عليه بالذات . وممن دافع عنه ، وانتصر له الفيلسوف الشهير محمد بن ابراهيم الشيرازي صاحب كتاب الاسفار ، والمعروف بصدر المتألهين [1] ومهما يكن ، فان اختلاف الآراء حول شخصية الغزالي لبرهان ساطع قاطع على عظمته وعلو شأنه ، وقد حظيت آراؤه باهتمام الفلاسفة في الشرق والغرب ، وحلت مؤلفاته محل الصدارة عند اهل العلم وطلابه ، وقادة الدين واصحابه على تباين مللهم ، واختلاف نحلهم .

حقيقة الكشف :

والآن ، فما هو الكشف الذي عناه الغزالي ، واعتبره مصدراً هاماً من مصادر المعرفة ، وبه صار في عداد الصوفية ؟ هل هو الاتصال ، والرواية عن الله بالمشاهدة ، كما يروي فلان

---

(١) واعتذر عن تكفيره الفلاسفة بانه فعل ذلك غيرة على الدين وحرصاً على الاسلام ، مع العلم بان صدر المتألهين شيعي جعفري ، وحجة الاسلام سني شافعي ، ولكن لا سنة ولا شيعة في الفلسفة ولا في العلم ولا في الدين ومن تتبع كتب السير والتاريخ يلاحظ ان الصلة بين علماء السنة والشيعة كانت فيما مضى اقوى مما هي عليه الآن .

عن فلان ، او هو اتحاد الانسان بالله ، كما نسب الى ابي يزيد البسطامي ، او حلول الله بالانسان وجميع المخلوقات ، كما نقل عن الحلاج ؟

والجواب :

ان الغزالي قد بين معنى الكشف بأنه نور يقذفه الله بالقلب ، ولكن هذا النور يحتاج الى توضيح وتحديد ، لان تفسير الكشف بالنور ، والنور بالكشف أشبه بتفسير الماء بالماء . وبديهة ان الحوادث والوقائع الملموسة هي التي توضح المفاهيم ، وتظهرها جلية على حقيقتها ، تماماً كحوادث الكنغو حيث اوضحت معنى الاستعمار ، وكشفت الغطاء عن جميع اسراره وليس لدي أية حادثة استشهد بها ، لان الكشف الصوفي من الامور التي لا تعرف الا من قبل الانسان نفسه . والذي فهمته من مطاوي كلمات الغزالي المتفرقة في آثاره هنا وهناك ، والمعنى الذي اتسم في ذهني من حيث لا أشعر هو أن الغزالي اراد من الكشف والنور شهادة القلب الطيب بما يراه ويحسه ، وان ما يراه ويحسه هو عين اليقين ، اما القلب الخبيث فشهادته كشهادة الفاسق الفاجر يجب ردها وعدم الاعتماد عليها .

وهنا سؤال يفرض نفسه : هل من الممكن ان يرى القلب الشيء على حقيقته بحيث يكون معصوماً عن الخطأ والاشتباه ؟ هل في القلب من المؤهلات ما تبلغ به مرتبة العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

ولا استطيع انا بالخصوص ان اجيب بالايجاب على هذا

السؤال اذا طلب مني الارقام والامثلة من الحوادث والوقائع المحسوسة الملموسة . ولدى الجواب الكافي الشافي على ان هـذا العلم ممكن في حد ذاته ، وغير مستحيل في طبيعته ، ومتى اثبتنا الامكان يصبح الوقوع سهلاً يسيراً . والعقل لا يرى اية استحالة في هذا الكشف ، لان المحال في نظر العقل هو مبدأ التناقض ، أي ان يتصف الشيء بصفة ونقيضها في آن واحد ، والكشف لا يستدعي شيئاً من ذلك ، وقد قال ابن سينا : كل ما قرع سمعك فذره في بقعة الامكان حتى يذودك عنه واضح البرهان . ومجرد الاستبعاد لا يصلح برهانا على شيء ، فان الانسان لو لم ير الراديو لنفاه واستنكره ، والقلب السليم اشبه بالراديو السليم ، فكما أن الراديو يلتقط الصوت كما هو دون تغيير وتبديل في كلمة او حرف او نقطة او حركة ، وكما ان آلة التصوير ترسم مناظر الطبيعة دون تحريف وتزييف اذا كانت صحيحـة فمن الممكن أن يشاهد القلب الطاهر الزكي الواقع على ما هو عليه في حقيقتة دون زيادة او نقصان ، ومن هنا قال الامام علي بن ابي طالب: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً .

وكما ان الراديو لا يلتقط الصوت الا بعـــد اجراءات ، وتوافر جميع الشروط ، بحيث اذا حصل له ادنى خلل توقـف عن الالتقاط كذلك القلب لا يشاهد الحقيقة الا بعد الجهـــد والاجتهاد من اجل صفائه وخلاصه من كل شائبة تقف حاجزاً بينه وبين رؤية الحق ، فاذا ما تدنس بالرذائـــل والارجاس احتجب عنه نور الحق ، قال الامام علي بن طالب : من قارف

ذنباً فارقه عقل لا يعود اليه ابداً .

ولا غرابة في هذا التشبيه ، تشبيه القلب بالآلة اللاقطة ، فاذا كانت هذه الآلة الصماء قد أتت بالعجب العجيب فبالاحرى ان يصدر عن القلب ما هو اعجب واغرب :

وتحسب انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الاكبر

وقد رأينا نوعاً من الحيوانات كالخلد ، ليس له عينان ولا اذنان ، رأيناه يحس بما يرى بالعين ، ويسمع بالاذن ، وقد اثبتت التجارب ان الكثير من الكفيفين يقومون باعمال المبصرين دون أن يقع أي حادث ، وان بعضهم يحس بوجود الجدار والشجرة على بعد عشرة امتار او اكثر .

هذا هو الكشف الذي اراده الغزالي، انه علم القلب الصادق، وحدسه الصائب ، ويقظة الذات الامينة ، وشهادتها العادلة ، وبهذا ، بحكاية القلب للواقع حكاية المرآة للوجه كانت الذات هي الواقع ، وكان الواقع هو الذات ، لا فرق بين اكتشافها ما وراء الطبيعة بنور الاخلاص والايمان ، وبين معرفتها باشياء الطبيعة بالتجربة والعيان ، كلاهما عين اليقين . وليس لرجل العلم أن يتنكر لهذا الكشف ، ويرفضه بقول مطلق ما دام العلم نفسه لا يقر شيئاً من الاحكام النهائية المطلقة .

ولا نجد عذراً لمن استبعد هذا الكشف ، وانكره على الغزالي الا انه قاس الغير على نفسه ، واتخذ من واقعه ميزانا للناس ولو تم وجه الشبه بيننا وبين الغزالي لكان للقياس وجه ،

اما ان نغرق في المادة الى ما فوق الآذان ، ثم نقيس أنفسنا بأهل الطهر والايمان فانه قياس مع الفارق، وتشبيه للضد بالضد، اما تصوف الغزالي فهو النسك والزهد في الدنيا بعد أن اقبلت عليه ، تصوف يحده الايمان بالله والعمل المنزه عن كل غاية من من الغايات المشينة ، لا تصوف الذين تظاهروا بالزهد في الدنيا بعد أن زهدت بهم ، ولبسوا الخرق والمرقعات ، وتشبهوا بالاولياء ، ليتبرك بهم البلهاء .

لماذا اتجه الغزالي الى القلب ؟

بقي أن نتساءل : لماذا اتجه العزالي الى القلب . واتخذ منه محوراً لاهتمامه ؟

الجواب ان الغزالي اتجه الى القلب لاسباب :

(١) ان في قلب كل انسان استعداداً لان يكون اديباً ، ولان يكون تاجراً ، فاذا تغلبت الشهوات على القلب كان شيطاناً ، واذا تغلب القلب عليها كان ملاكاً ، ونرمز بالملاك الى سيطرة الفضيلة على الرذيلة ، وبالشيطان الى استبداد الرذيلة وتحكمها ، فاجتهد الغزالي ان يكون القلب هو الغالب والمنتصر، ومتى انتصر القلب على الكذب والطمع والرياء ، وما الى ذلك من امهات الرذائل كان ما يحس به ويشعر حقاً وصدقاً .

(٢) ان اكثر اعمال الانسان الاعتيادية التي تحدث اثناء

حياته اليومية مصدرها القلب لا العقل ، لانها تنبعث عن الرضا والغضب ، واليأس والرجاء ، والامن والخوف ، وكل هـذه من صفات القلب ، أما العقل فهو أصل القضايا الفنية ، والمخترعات العلمية ، واذا كان له من شأن وأثر في غير قضايا العلم فهذا الاثر العقلي لا يتعدى تزيين الالفــاظ ، ونظم الاقيسة ، وتنميق الخطب للتأثير على السامعين ، ولو الى حين الانتهاء من الالقاء ، وان ابيت الا أن تجعل اثراً ما للعقل في غير قضايا العلم فنؤكد لك ان هذا الاثر يقف عند النظريات ، ولا يتجاوزها الى الاعمال الاعتيادية والخلقية ، تماماً كسلطة التشريع بالقياس الى سلطة التنفيذ ، فالعقل هو المشرع ، والعاطفــة هي المنفذ ، وان استجابت للعقل ، والا فنظرياته صرخة في واد .

والدلالة الصادقة الواضحة على هذه الحقيقة اننا نؤمن نظريا بان هذا الشيء حق ، ثم نهمله ونتجاهله ، ونعتقد نظريا بأن ذاك باطل ، ثم نفعله ونقدسه والسر أن الانسـان خاضع في اعماله لمنطق العاطفة لا لمنطق العقل ، ولا لمنطق الدين ، الا اذا تحول الدين الى العاطفة . اجل ، ان الانسان او العـديد من افراد الانسان يتخيلون انهم يسيرون في اعمالهم بوحي العقل والدين ، ولكنهم في الواقع مسيرون باملاء الهوى والغرض ، وفي نفس الوقت يفسرون اعمالهم العاطفية باوهامهم العقلية ، ويخلطون بين حقيقة الدين ، وبين ما يتراءى لهم انه من الدين ، وتتجلى هذه

الظاهرة ، ظاهرة الخلط بين انواع المنطق . تتجلى عند الباطنية اكثر من أية طائفة اخرى .

ومن اجل هذا ، من اجـل ان القلب مصدر الاعمال التي يسببها الغضب والرضا ، والامن والخوف ، واليـأس والرجاء اتجه الغزالي الى القلب ، حيث تكمن الادواء والاوباء ، واولاه كل رعاية وعناية .

(٣) ان للوحي واقعاً في ذاتـــه ، ولكن ما هو الطريق لمعرفة هذا الواقع ؟ هل نعرفه بالوحي ، وكلنا يعلم أن الشيء لا يثبت نفسه ، او نثبته بالعقل ، وهو عاجز عن حل المعضلات الالهية ، وقد رأينا آراء ارباب العقول متضاربة متباينة في هذا الميدان ، فلم يبق الا القلب فهو المصدر الوحيد للايمـان بالله وكتبه ورسله .

نوابغ الفكر الحديث :

ولهذا الرأي ، وهو الرجوع الى القلب في الالهيات انصار كثيرون من نوابغ الفكر الحديث ، منهم الفيلسوف الشهير « كانت » والكاتب الانكليزي هكسلي ، والالمـــاني وانز ، والفرنسي رومان ، وغـيرهم . وهكذا نرى الامام الغزالي يسبق هؤلاء النوابـغ بمئات السنين .

الانقـاذ من الضلال :

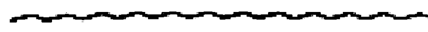
لقد رجع الغزالي الى القلب لينقذ هـذا الدين من المفاهيم الفاسدة ، والافـكار الخاطئة التي هددته بخطر بالغ ، لقد اراد الغزالي هذا الدين خالصاً من تأويلات اهل الباطن ، وامعانهم في التعسف والتـكلف ، ومن جهل اهل الظـــاهر وجمودهم على الالفاظ ، ومن جهل اهل الظاهر وجمودهم على الالفاظ ، ومن شطحات الصوفية التي تجاوزت كل حد ، ومن أوهام الفلاسفة وتخيلاتهم التي اعتبرت حقائق الوحي في مرتبة ادنى من اقيسة ارسطو وتصوراته .

وبهذا كان الغزالي مجدداً عظيما ، ومصلحاً كبيراً ، واماما خالداً ، ولو أن قادة الدين ساروا على سبيله هـــذه ، وبنوا الحياة الدينية على اساسه ، اساس الكتاب والسنة واطمئنان القلب ، وتركوا التمحلات والتعسفات ، لو فعلوا هـــذا لاستراحوا واراحوا ، ولما وجد في المسلمين شاب متحذلق ، وآخر متزندق . ولما اضطر الحريصون على الدين أن يضعوا المؤلفات الطوال في الدفاع عنه ، ونفي الافكار الدخيلة عليه ، وكنا واياهم في غنى عن هـذه الكتب التي تحمل اسم الاشتراكية في الاسلام ، والسلم والاسلام ، والعدالة الاجتماعية في الاسلام ، وما الى ذاك ، اقول هـذا ، مع ايماني بأن اصحابها كتبوا ونشروا بدافع الغيرة على الاسلام ، والاخلاص

للمسلمين ، وبأننا اليوم في أشد الحاجة الى هذه المؤلفات ، ومع احترامي الفائق ، وتقديري البالغ لجهودهم الطيبة المثمرة .

وبالتالي ، فاذا نحن عظمنا وكرمنا الامام حجة الاسلام الغزالي فانما نعظم ونكرم فيه الانسانيـة والعلم والدين ، فلقد عاش الامام الغزالي للناس لا لنفسه ، وعمل للدين لا للاتجار به ، وجاهد في سبيل العلم للعلم ، لذا سيبقى حياً ما بقي الانسان والعلم والدين « وذلك جزاء المحسنين » .

الفهرس



للمؤلف

- الوضع الحاضر في جبل عامل (نفذ)
- الفصول الشرعية (الطبعة الثانية)
- مع الشيعة الامامية
- أهل البيت
- الاسلام مع الحياة (الطبعة الثانية)
- الله والعقل (الطبعة الثالثة)
- النبوة والعقل (الطبعة الثانية)
- الآخرة والعقل
- علي والقرآن (الطبعة الثانية)
- مفاهيم انسانية في كلمات الامـــام الصادق
- الفقه على المذاهب الخمسة
- معالم الفلسفة الاسلامية
- الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة
- المجالس الحسينية
- الشيعة والحاكمون
- نظرات في التصوف والكرامات

مطبعة غمتنم - شارع بشارة الخوري - بناية نقاع - تلفون : ٣٧٥٢٣

الثمن : ١٢٥ ق. ل.
١٥٠ ق. س.